أهْل البلادْ

قصص

إبراهيم سعد الدين

ليست وظيفة الكتابة أو نِتاجُها طَمْسَ جُرْحٍ أو علاجَه، وإنما إعطاؤه مَعْنىً وقيمة، وجَعْلُه . في النَّهايةِ . لا يُنْسَى.

(آني آرنو . المكان)

مَوْتٌ مُحَقَّقْ

تتطَلَّعُ إليَّ بِعَيْنيْن لا تَرمشان أبداً. عَيْناها مُتَّسعتا الحدْقتيْن شديدتا الدُّكْنةِ عميقتا الغَوْر، تُشْعرانك بالدُّوار إذا أطَلْتَ التَّحْديقَ إليهما كأنَّهما فوّهتا بئريْن جافَّتَيْن لا قَرارَ لهما. وأنا مُتشاغِلٌ عنها بقراءة الصحيفة اليوميّة، مُتجاهلٌ ليَدها الصَّغيرة الممدودة صَوْبي بالاسْتغراق في قراءةٍ لا يَصلُني منها غير أشكال حروفٍ وكلماتٍ وفواصل وصور تختلط ببعضها البعض ثُمَّ تعود تنفصلُ وتتباعد. أختلسُ إليها نظرةً خاطفة لا تُغيّرُ شَيْئا من ملامح وَجْهي المُحايد، بينما نِصْفُ عَقْلي الواعي مشغولٌ بحَسْمِ قرارٍ بدا مُسْتَعْصياً على الحَسْم. أخيراً أسْتريح حين يَقرُّ قراري على أنَّ إعطاء هؤلاء نقوداً ـ أيَّة نقود ـ يُشَجّعهم على التَّنْبَلةِ والتَّسَوّل. حين يطول تردُّدي تَرْتدّ اليد الممدودة وتطوف المَقْهى في جولة قصيرة يعقبها انفلاتة يأسٍ إلى الشارع الغاصّ بحركة البشر والسيارات المارقة في جنون، فَجْأة ينتفضُ الشارع على صَرْخةِ طِفْلةٍ مذعورة وصَوْت فَرْمَلَةٍ وارتطامٍ مُفاجئ. أنهضُ مُسْرعاً مع غيري من رُوّاد المَقْهى الذين اشْرأبَّتْ قاماتهم واتسعت عيونهم فضولاً صَوْب المَشْهد الماثل، عربة فارهة انحرفتْ عن مسارها تفادياً للاصْطدام بأحَدٍ ما، فاصطدمت بعمود النور وتهشَّمت مُقَدّمتها تقريباً، لكنَّ صاحبها خرجَ سَليماً مُعافى ومذعوراً يسيل من فمه شَلاّل سِبابٍ لا يَنْقطع لأولاد الكلاب الذين يُلقون بأنفسهم للتَّهلكة ويتَسَبَّبون في أذِيَّة النّاس. أتفقَّدُ المَشْهد من كُلِّ زواياه بَحْثاً عنها، حَتَّى أعثُر عليها أخيراً في مكانٍ ناءٍ على الرصيف المُقابل، تَرْقُبُ المَشْهد مِثْلَنا في صَمْت ورُبَّما بدهْشَةٍ وعدمِ تصديقٍ أنها نَجَتْ من مَوْتٍ مُحقَّق، وبين الحين والحين تتطلَّعُ إلى باب

المَقْهى . حيث أقفُ مع غَيْري ممَّن أثارت فضولَهم غرابةُ المَشْهد . بذاتِ العَيْنَيْن شَديدتي الدُّكْنة عَميقَتَي الغَوْر اللَّتَيْن لا تَرْمشان أبداً.

مِعْطفْ (جو تايْنانْ)

حَلُمْتُ في صبايَ بأشْياء كثيرة، أكْثَر من أن تُحْصَى، وجميعها لمْ يَتَحقَّقْ طبعاً. سقطتْ بالتّقادمِ من ثقوبِ الذّاكرة، فلمْ آبه لها، ونسيتُها تباعاً. وحْده مِعْطف جو تايْنانْ هو الذي بقي يلازمني طيلةَ العُمْر. جو تايْنان..؟! لا.. إنّه ليسَ شخصيّةً كرْتونيّة، بلْ شخصيّة عضْو الكونجرس التي جسّدَها الممثّل الأمريكي الوسيمْ فارع الطّولِ ممشوق القوامْ بانْحناءةٍ لطيفةٍ مُحَبَّبة عند الكتفيْن ألان ألْدا، في فيلم السَّبعينيّات القديم (إغْواءْ جو تايْنانْ). وهو . بالمناسبة . غير الممثّل البريطاني المُكْتَنزْ قصير القامة ألانْ لادْ، الذي رفضَتْ النّجْمة الجميلة صوفيا لورين أنْ يُشاركها البطولة في أحد الأفلامْ، لفارق الطّول الشّاسعْ بينهما. في المشْهد الرّئيسي للفيلْم، ظهرَ جو تايْنانْ بذاك المعْطف المطريّ وهو يُسابقُ الزَّمنَ بسيّارته، ثُمّ وهو يرْكضُ بأقصى سُرْعته تحت مطرٍ غزيرْ وهواءٍ عاصفٍ يُطيّرُ ذَيْلَ مِعْطفه، ليَلْحقَ بعشيقته المُسافرة . ميريل ستريبْ . ويودّعها الوداع الأخيرْ. كان بيْنهما موْعدٌ يقضيانه . كالعادة . بإحدى الغُرفِ المُؤجَّرةِ في أحدِ الفنادقْ، لكنْ قبْل الانْطلاقِ إلى الموْعد حدثَ ما لمْ يكُنْ في الحُسْبانْ. اكْتشفَت الزّوْجةُ الكئيبَةُ جامدة الوجه باهتة الملامح علاقته السِّرّيّة بالعشيقة الجميلةِ وقلبَتْ عليْه البيْتَ رأساً على عقبْ، فوعدها بأنْ يُنْهي هذه العلاقة. اتّصَل هاتفيّاً بالعشيقة واعْتذرَ لها عن الموْعد فأبلغتْه بأنّها تحزمُ أمتعتها للسّفَرْ. أدْرَكها . أخيراً . وهي تهمُّ بالصّعود إلى الطّائرة، ودارَ بينهما الحوار التالي:

. أنتَ طلبْتَ منْهم أن يؤخّروا موعد إقْلاع الطّائرة.. أليْسَ كذلك..؟!

لمْ يُنْكِرْ. فقطْ ابتسَمَ بارْتباكٍ وبدا عليْه أنه لا يجدُ ما يقوله. تعلّلَ بمرضِ ابْنته بالحُمّى فقاطَعتْه بلُطْف:

. لا تجْهدْ نفسكَ في البَحْثِ عنْ أعْذارْ.. اعْتدْتُ على هذه المواقفْ..

زادَ ارْتباكُه. أخيراً اضطرّ إلى الاعْترافِ بأنّه لقاؤهما الأخيرْ. وأضافَ قوْله:

. كُنتُ قدْ أعْدَدْتُ خطاباً قصيراً.. لكنّه على ما يبدو سقطَ من ذاكرتي..

. لا عليْك.. فأنا أعرفه مُسْبقاً.. عُدْ إلى عائلتك..

ختامُ هذا المشهد الرّومانسي المُؤثّرْ: ميريل ستريبْ تصْعدُ سُلّمَ الطّائرةِ على مهل، دون أن تلتفتَ وراءها، بينما ألانْ ألْدا يقفُ وحيداً عند مدْرج الطّائرة، تحتَ مطرٍ غزيرْ، وعاصفةٍ هوْجاء تُطيّرُ ذيْلَ معْطفه.

ظلّ هذا المشهد يُروادُ مُخيّلتي زمناً، بينما بقي المعْطفُ هاجساً مُلحّاً في كُلّ الأوقاتْ، يُلاحقني كُلّما تقدّم بي العُمْر، حتّى بعد أن كبرْتُ وجُبْتُ بُلدان العالم شرْقاً وغرْباً وشمالاً وجنوباً، والغريب حقّاً أنّي لطالما رأيْتُ هذا المعطف ذاته معروضاً خلف الواجهات الزّجاجيّة في كثيرٍ من محلات الأزياءِ الرّاقية، فلمْ يخطرْ لي يوْماً أن أبتاعه، رُبّما زُهْداً في حُلْمٍ تقادمَ عليْه العهد، ورُبّما . وهو الأرْجح . لأنّه بدا فاقداً لجاذبيّته الغامضة، وهو مُجرّدُ قطعةِ قِماشٍ معروضةٍ للبيع، بعيداً عن القوامِ الفاتنْ لعضْو الكونجرس، والجمال الأخّاذْ لمعشوقته المُغْوية، وعواصفِ الشّتاءِ الهوْجاءِ والمطَرِ المُنْهمِر، ولحْظة الفراقِ التي تعتصرُ القلْب.

جُرْحٌ قَديمْ

كانت تلك صورة أبي، بسُتْرَته الرَّماديَّة وطربوشه ورباط عنقه وتلك النظرة الحزينة في عيْنيه. حتى نُدْبة جرحه الغائر التي تتخلَّلُ حاجبَه الأيْسرَ وتَمْتدُّ قليلاً إلى الجَبْهة كانت واضحة لا تخطئها العيْن. صورةٌ مَرْسومة بالقلَمِ الفَحْم تشي ببراعة الرَّسّام ميخائيل الذي مهَرها بتوقيعه ودَوَّن التاريخ أسفل التوقيع: السابع من مارس سنة ألفٍ وتسعمائةٍ وواحدٍ وسِتِّينْ. كنتُ . وقتها . في مطلعِ صباي، وأتذَكَّرُ . الآن . كم كانت فرحةُ أبي وهو يفضُّ ورق الغلافِ عن الصورة ويتأملها بشغف. كما أتذكَّرُ . وأنا أتأمَّلُ نُدبة الجُرح في وجه أبي . كذبتي الصَّغيرة حين سألني أحد رفاق صباي عنها فقلتُ له بزَهْوٍ: إنها حَرْبُ فلسطين. كنتُ أجهلُ حقيقتها، وكان أبي يروغُ مني دوماً كُلّما سألته عنها، لكنه . وهو على فراش الموت . انحَلّت عُقدة لسانه فجأة وراح يقصُّ حكايتها لأمّي التي بدا أنها . على النَّقيضِ مِنّي . غَيْرُ شغوفةٍ باستِجْلاء سِرّها، كأنَّما سَمعَتْها مراراً منْ أفْواهٍ كَثيرة، بِصيَغٍ وأحْداثٍ مُخْتلفة، فراحتْ تُصْغي للحديثِ باهْتمامٍ مُصْطنَعْ وحماسٍ فاترْ. قال أبي كأنَّه يسترجعُ ذكرى موغلةً في القدم ظلَّ يتعذبُ بها طيلة الوقت: إنه أبي سامحه الله. بعد أن ماتت أمّي كان يأخذني معه أينما راح. وكان يعرفُ امرأةً من أهل البلاد* يتسلّلُ إليها ليْلاً. يُجلسني على مصطبة البيت لأرقب له الطريق ويمضي هو إلى بغْيته. حدثَ مَرَّةً أن غلبني النوم وغفلتُ عن حراسة الطريق

* تعبير يُطلق على أهل العزب والكفور المتاخمة للقرى

فصحوتُ على صوتِ جلبة وهَرَجٍ ومَرَجٍ وصياح رجالٍ ونسْوَةٍ ورأيتُ أبي خارجاً من البيتِ بملابسه التَّحْتيّة والحجارةُ تنهال عليه من كُلّ فَجّ. أمّا أنا فكانت حصَّتي طوبَة طائشة شَجَّت حاجبي وكادت تذهبُ ببصري. كان أبي ينزفُ دماً ويتخبطُ في سَيْره وهو يحثُّ الخطى لائذاً بالفرار فلمْ يَرَني. المرأة ـ خليلة أبي ـ هي التي احتضنتني وحملتني إلى بيتها وأرسلت في طلب المِزِيّن* فجاء على عجلٍ وخاطَ لي الجرح الغائر وقال لي: حَمْداً لله.. قَدَّرَ ولطَفْ.. كادت هذه الطُّوبة تذهب ببصركْ.

أمَّا هي فأخذتْني في حُضنها وظلتْ طيلة اللّيل تقصُّ عليّ حكاياتٍ وحواديت وتُشيدُ بمروءة أبي الذي أحسّ بانكشاف أمرهما فقال لها: صَوَّتي*

وأرْدَفَتْ حين رأتْ الدَّهشةَ في عيْنَيَّ المُتعَبَتَيْن: .. حتَّى يُوهِمَ النَّاسَ بأنه تهجَّمَ عليَّ دون رغبةٍ مني.. سَترني يَسْتُره الله..!!

ومَصْمَصَت شفاهها وهي تقول أخيراً: غداً تَكْبرُ.. وتعرف أيَّ حَمَاقاتٍ يَفْعلها الكبارْ.

ماتَ أبي وبقيت صورته ونُدبةُ الجُرْحِ الغائرِ، كُلَّما تطَلَّعتُ إليها تذَكَّرتُ كذبتي الصَّغيرة وصوتَ أبي وهو يتهجّد بالحَديث عنها، ولأمْرٍ ما يُداخلني إحساسٌ غامضٌ بأنَّ حديثَ أبي لم يكن نَهايةَ المَطاف وأنّ الكلمةَ الفَصْلَ ما تزالُ طَيَّ الغَيْب، وأنّها سوف تَظَلُّ هكذا مثل تعويذةٍ لا تنْحَلُّ شَفرتها ولا تبوحُ بأسرارها.

* حلاّق القرية ويقوم مقام الطبيب والمُمرّض أحياناً فيصف الدواء للمرضى ويخيط الجروح ويضمّدها ويختن الصِّبية ويخلع الأسنانْ.

* أي اصْرخي بأعلى صوتك مُستغيثة.

عِشْرَةْ عُمْر

حين طالعه وَجْهُها عند سُلَّم البناية المُفضي إلى الطابق الثاني أيْقَن أنه يَوْمُ "الشِّفاه المُكتنزة". كان وَجْهاً مائلاً للبياضِ دون حُمرةٍ لسيّدةٍ في مُنتصفِ العُمر بتقاطيع لَيِّنَةٍ ومُريحةٍ للعَيْن لا يَلْفتُ النَّظَرَ فيها سِوَى الشَّفَتيْن المُكْتنزتيْن حَدَّ الإثارَة. مُنذُ أحَسَّ أيّامه تتهاوى تحت قَدَميْه كحبّاتِ مِسْبَحَةٍ انفرَطَ عقْدُها وهو يَرَى الأشياء بعينٍ أُخْرَى؛ عَيْنٍ مُتأمّلةٍ ونظراتٍ فاحصةٍ دقيقة لا تَقْنَعُ بِرَصْدِ الأشياءِ وإنّما بتوصيفها ورَبْطها ببعضِها البَعْض. واكتَشَفَ . ضِمْنَ تَجَلّياتٍ وكشوفٍ أخرى . أنّ الأيّام تُطْبَعُ بِسِماتِ أوّلِ وَجْهٍ أو جَسَدٍ يَسْترْعي الانتباه، فهذا يَوْمُ الأسْنان البارزة، وذاك يَوْمُ العيون الجاحظة، ويَوْمُ السّاقِ العَرْجاءْ، ويَوْمُ الوحوشِ السّائبة، ويَوْمُ الزّواحفِ والبَرّمائيّات، ويَوْمُ الغِرْبان النّاعقة، ويَوْم الصُّقور والطيور الجارحة.. وهكذا دواليكْ. ولَوْ أنّه صادَفَتْه لَفْظةٌ مِثْل هذه . دواليكْ . لوضَعها تحتَ مِجهرِ عَقْله وراح يُقَلّبُها على وجوهها ويُعْملُ فيها مِبْضَعَه مُتقصّياً ومُسْتنبطاً أصْلها وفَصْلَها وصلاتها بألفاظٍ أخرى لها نَفْسُ المَعْنَى والدّلالة مثل كلمة وهَلُمَّجَرّا. ومِنْ عَجَبٍ أنَّ أوّلَ انْطباعٍ يُداخله إزاءَ وَجْهٍ أو شَخْصٍ أو حَدثٍ ما كان يَطْبَعُ اليَوْم كُلّه بطابعه، وكأنه دَمْغَةٌ أو ماركةٌ مُسَجّلة تَمُرُّ عليْها كُلُّ مشاهد اليَوم وشخوصه وأحداثه فتنطبعُ بخاتَمِها. اليَوْم إذَن كان يَوْمَ الشِّفاهِ المُكتنزة. وهو فَأْلٌ حَسنٌ وبَشيرٌ سارّ، لأنَّ فيه على الأقلّ نَكْهةَ الأنوثة ومَلْمَسها النّاعم الرّقيق. لا يَهُمّ إن كان وَجْه الأنثى المَجْهولة قد توارَى وذاب في زحام الوافدين إلى بناية التّأمين الصِّحّي، فإحْساسُه باكتنازِ الشَّفَتَيْن لم يُزايلْه لَحْظةً واحدة وهو يُسَلِّمُ بطاقته الصِّحّيّة ويَتَّخذ مَجْلسه على المقاعد المُخصصة للمَرضَى أمام غُرْفة الكَشْف. يروقُ له دائماً الجلوسُ

في آخر صَفٍّ بصالة الانتظار حيث المقاعد الخالية والمجال الحَيويّ المُريحْ والإحْساس الباطنيّ بالاسْترخاءِ والسَّيْطرة. لكنّه ما كاد يَسْتريحُ في مِقْعدِه مالئاً رئتيْه بنَفَسٍ عميقْ حتَّى كان المِقْعدان المُجاوران له قَدْ شُغلا بِصَوْتَيْن نِسائيَّيْن طابَ في أذُنَيْه وَقْعُ أحدهما ونَبْرتُه السّاخرة والضَّحْكة الناعمة المُختلطة ببَحَّةٍ لطيفة عند نهاية كُلِّ جُمْلة. تَصَرَّفَ كسَيِّدٍ مُهَذَّب وغالَبَ فضوله فلَمْ يَلْتفتْ على الفَوْرِ لِتفقُّد ملامح الوَجْهَيْن المُجاورَيْن له واكتفَى بنظْرَةٍ أفقيّةٍ مُسْتقيمة لمُؤخّرات الرؤوس المُصْطفّة أمامه مُرْهفاً سَمْعَه لالتقاطِ كُلّ هَمْسَةٍ في الحديثِ الدّائر إلى جواره، مُنْحرفاً بِعَيْنِه اليُمْنى قليلاً جهة الجَسدِ الأنثويّ المُتَّشح بثوْبٍ أسْود يَشي بطراوةٍ ولدونةِ الفَخْذَيْن والذّراعِ المُلاصق له. أخيراً وجَدَ ضالَّته المَنْشودة في الالتفاتِ بِحُرّيّةٍ ودونما أدْنى حَرَج إلى السَّيِّدتيْن الجالسَتَيْن على يمينه حين تناهَى إلى سَمْعه الصَّوْتُ الأنْثويُّ بإيقاعه الوئيد وبَحَّته المُحبّبة:

. من الذي جاء..؟!

نَظَرَ أمامه ولاحظَ الهَرَجَ والتزاحُمَ عند مَدْخل الغُرْفة واكْتشفَ أنّ البابَ قد أُغْلق ووُضِعَتْ لافتةٌ باسْم الطبيب الذي جاء.

. طبيبة اسْمُها سَحَرْ..

وأرْدفَ إجابَتَه المُقْتضبة بسؤالٍ وهو يتأمّلُ تقاطيع الوجْه الحِنْطيّ بشَفَتَيْه الدَّسمتيْن كثمرةِ تينٍ اسْتوتْ على فَرْعها وشُقَّتْ نِصْفَيْن:

. هل تنتظرين طبيباً مُعَيَّناً..؟!

وقَبْلَ أن يأتيه رَدُّها تَطوَّعَ بإبداءِ ملاحظته بِلَهْجة العارفِ الخبيرْ:

. على فِكْرة.. سَحَرْ طبيبة مُمتازة..

. سَحَرْ..؟! دي زَيّ العَسلْ..!!

العَسَل الحَقيقي كان ينسابُ من بين شَفتيْها ويَقْطرُ في الصَّوْتِ العَذْبِ ذي البَحّةِ المُمَيَّزة.

. يبدو أنّك مِثْلي.. حديثة العَهْد بأطبّاء القَلْب..

كان يَعْرفُ القاعدة الذَّهبيَّة: إنْ كُنتَ لا تريدُ سَماعَ الحقيقة فلا تُسْرفْ في طَرْح الأسئلة. ولأنّه لَمْ يكُن شَغوفاً . في تلك اللَّحظة بالذّاتْ . بالاطّلاعِ على أيةِ تفصيلةٍ من تفاصيلِ حياتها قَدْرَ شَغفه باختبار رَغْبَتها في مواصلة الحديث معه، لذا تَفَنَّن في صياغَةِ عباراته بحيث تكونُ وسَطاً بين التَّقْرير والاسْتفهامْ.

. لا.. أنا حديثة عَهْدٍ فقط بالتأمين الصِّحّي..

وأضافَتْ قَوْلَها وهي تُحِسُّ نَظرات عَيْنَيْه المحيطةَ بِوَجْهها وجَسَدِها كسياجٍ يَحْصُرُها داخلَ نِطاقِه:

. المعاشْ لَمْ يَعُدْ يَتَحَمّلُ مصاريفَ الأطبّاء والعلاج والتحاليل والدّواءْ..

. نعمْ.. التأمين الصِّحّي نِعْمَة..

. وأيّ نِعْمة..؟! مصاريف العيالْ أيضاً زادتْ.. والمعاشْ كما تعرف لا يزيدُ إلاّ ملاليم قليلة..

. نعمْ.. هذا أشْبه بِسِباق الأرنب والسُّلْحفاة..

لَمْ يَبْدُ على وَجْهها أيُّ أثَرٍ لاسْتحسان عبارته كما كان يأملْ، كانَ ذِهْنُها مَشْغولاً بشَيْء آخر خَشي معه أن يَنْقَطع حَبْل الحديث عند مَديحِ التأمين الصَّحّي، فاسْتَدْرَكَ قائلاً:

. لكنْ.. لا يبدو عليْكِ أنّك بَلَغْتِ بَعْدُ سِنَّ المَعاشْ..

كانتْ قَفْزَةً بارعة في الهواءِ نقلتْ الحوارَ كُلَّه إلى منطقةٍ أكثر تَشْويقاً وأرْحَبَ أفقاً. وحين لاحظَ الْتماعَ عَيْنَيْها وبَسْمَةَ الرّضا الماثلَةَ على شَفَتَيْها تَشَجَّعَ أكثر:

. مَعاش مُبَكِّرْ..؟!

في تلك اللحظة الفريدة بالذّاتْ والتي عَدَّها لَحْظة مُناجاةٍ وبَوْح اقْتَحَمَ خِلْوتهما وَجْه المرأة الأخرى الجالسة على يَمينها، وجْه أسْمر بفَمٍ واسِعٍ وشَفَتَيْن تجاوزتا حَدَّ الاكتناز إلى التَّضَخُّمِ فوجئ به مَدسوساً بينهما كالعَمَلِ الرَّضي، قاطعاً حوارَهما الذي كان قد انتقل . بالكادِ . من العام إلى الخاصّ.

. هي الدكتورة بدأتْ والاّ لِسّه..؟!

بدتْ عبارتُها وطريقة الإلقاءِ وجُرْس الصَّوْتِ كنغمةٍ نشازْ وسط معزوفةٍ يسودها التناغُمُ والانْسجامْ.

. أفتكر بدأتْ..

أجابَ باقتضابٍ وهو يُفكّر بطريقةٍ يُعيدُ بها الحوارَ إلى سياقِه، لكنَّ ابتسامة الوجْهِ الأليفِ وصوتها الأنيسَ وَفَّرا عليْه الجَهْد وأعادا إليْه طُمأنينةً كادتْ تفرُّ من بيْن يَدَيْه.

. لا.. هذا معاشْ زوجي يَرْحَمُه الله..

. عليْه رَحْمةُ الله ورضْوانه..

لفظ عبارته بترحُّمٍ حميمٍ كأنّه صديقٌ عزيز رحلَ لتوّه عن الدُّنيا.

. والمرْحومْ أيْن كان يَعْمل..؟!

. بالسِّكّة الحديدْ..

وأضافتْ قَوْلَها:

. كان مايزالُ بالخِدْمة..

. الله يِرْحمه..

ثُمّ بِصَوْتٍ كُلُّه حِكْمَةٌ ومُؤاساةٌ ومُشارَكةٌ بالأحزان:

. نحن في هذه الدُّنيا مسافرون بقطار.. لا نَعْلَمُ أيُّنا سوف يَتَرجَّلُ في المَحطّة القادمة..

لَمْ يَبْدُ على وَجْهها تأثُّرٌ يليقُ بجلالِ حكْمته وتَعْزيته.

. هل كان مريضاً بمرَضٍ ما..؟!

. لا...

بادرتْ بالنَّفْي، وشَفعَتْ قولها بعبارةٍ مُقْتَضَبة وغامضة:

. ماتَ بالسَّكْتة القَلْبِيّة..

لا يَدْري لماذا راوده خاطرٌ بأنّ السَّكْتة داهمتْه وهو في وَضْعِ اسْتمتاعٍ معها، وأنّه لفظَ آخرَ أنفاسِه على هاتيْن الشَّفَتَيْن..

. المَوْت المُفاجئ على أية حالْ هو مَوْتٌ رَحيمْ..

وأضافَ قَوْله بنفسِ الصَّوْتِ الرَّصينْ:

. لا شَيْءَ أصْعبُ على الإنسانْ من المرضْ..

. نَعَمْ.. لكنّ الفراقَ صَعْب.. خاصّةً بعد عِشْرةٍ غالية..

وأكملتْ بتنهدةٍ عميقة:

. عِشْرَة عُمْر..

خَشيَ على حوارِهما أن يتوغّلَ أكثر في نفقِ الحُزْن المُظْلم والتَّرحُّمِ على الأمواتْ، فقام بقَفْزَةٍ بَهْلوانيّةٍ أُخرى مُغَرّداً خارجَ السِّرْب:

. البَرَكة في أولادك.. كمْ ولداً عندك..؟!

. خَمْسَة.. ثلاثْ بناتْ وولدانْ.. أكبرُهُمْ في الجامعة.. وأصْغرهُمْ في تانية ابتدائي..

. ماشاء الله.. ربّنا يباركْ فيهم..

. وأنتْ..؟!

. أنا..؟!

بَلَعَ ريقَه قبل أن يَسْتَطْرد:

. نحن لَمْ نُرْزقْ بأولاد..

. أحْسَنْ.. وماذا أخذْنا منهم غير ضَغْط الدّم..!!

قال برباطةِ جأش:

. الأولاد زينة الحياة الدُّنيا..

. رَبّنا قال المالْ والبنونْ.. لكنْ الأولاد من غير مال هَمّ وغَمّ وقلّة راحة..

تضاحكَ قائلاً:

. أنا الحمد لله ربّنا عَوَّضْني بزوجة أغْنتني عن الدُّنيا ومافيها..

واسْتَرْسَلَ وهو يتأمّلُ بريقَ العَيْنَيْن والبَسْمَةَ المُرْتسمة فوقَ الشَّفَتَيْن المُطْبقَتَيْنِ على دِفْءٍ وثيْر:

. هي الأمّ والأخت والبِنْت.. و..

اتَّسَعَتْ ابتسامَتُها ولَمْ تُعَقِّبْ، لكنّ فَحْوَى رسالتها وصَلَتْه واضحةً جليّةً لا لَبْسَ فيها: إنْ كُنتَ على ما تَزْعمُ من الشَّبَعِ والاكْتفاءْ.. فلماذا تحومُ حَوْلي وتَتَمَسَّحُ بساقَيّ كالجَرْو الصَّغيرْ..؟!

مَرَّتْ بُرْهَةُ صَمْتٍ قلق حارَ كلاهما في كيفيّة الخروج منه والإمساكِ مَرَّةً أخرى بتلابيبِ الحديثْ، لكنّ صَمْتَهُما لم يَطُلْ، اقْتَحمه صَوْتُ المرأة الأخْرى بَرِماً نافد الصَّبْر:

. أنا تأخَّرت.. لا أدري كم سيطول انتظارنا..

صَدَّقَتْ هي على قَوْلها لكن بِقَدْرٍ أقلّ كثيراً من الضّيقْ:

. أنا كمان اتأخَّرْت كتير.. العيالْ في البيت لوَحْدهمْ..

وجَدَ الآن فُرْصَته سانحةً لحصادِ ما كَدّ في زراعته ورعايته طيلة الوَقْت:

. لا بأس.. أنا سأوصّلكما بالسَّيّارة..

كانتْ التماعةُ عَيْنَيْها هذه المَرَّةَ مَزْجاً مُتجانساً من الدَّهْشةِ والارْتياحْ، وقطوف شَفتيْها أدْنَى إليْه من أيّ وَقْتٍ مضَى:

. عَنْدَكْ سَيّارة..؟

. نعم.. سيارة على قَدّ الحالْ..

ولكيْ يُشْبعَ فضولَ عَيْنَيْها خَتَمَ عبارتَه بتواضُعٍ مُصْطنع:

. لادا قديمة.. لكنّها عزيزة عليّ.. هي الأخرى عِشْرة عُمْر..

هذه المَرَّة سَمعَ صَوتَ ضحكتها ينسابُ في أذنيْه ويَسْري في جسده مَسْرَى العُصارةِ في أنسجةِ نباتٍ غَضّ.

قِسْمَةْ غُرَماءْ

أخيراً . بَعْدَ أخْذٍ ورَدٍّ وشَدٍّ وجَذْبٍ وعِراكٍ وسبابٍ وشتائم وتشابكٍ بالأيدي . قَرَّرْنا أن نقتسمها بيننا قِسْمةً عادلة. قال لي: أنتَ ليلةً وأنا لَيْلَة. قلْتُ له: لا.. أنتَ بعض الوقتِ من اللّيْل وأنا بَعْضَه الآخَرْ. واتَّفَقْنا على ذلك. كان لديْنا شبْه يَقينٍ بأنّ انفراد واحدٍ منّا بها اللّيْلَ بطوله سَيُصيبُ الآخرَ بحُمَّى هياجٍ رُبَّما لا يَقْدرُ على كَبْحِ جماحه. هو أحد أبناء خالتي، يُقيمُ في قريةٍ تبعدُ مسيرة ساعةٍ وبعْض الساعة عن بلدتنا ومَسْقط رأسنا حيث بيت جَدّي لأمّي. ونُقيمُ نحن . أبي وأُمّي وإخوتي الثلاثة . بالمدينة التي يستغرقُ سفرُنا منها وإليْها نحو ساعةٍ بالسَّيّارة. نجتمعُ معاً في إجازات نصف العام والإجازة الصيفية والأعياد والمآتم والأفراحْ . رغم أنّ بيت العائلة الكبير . بيت جدّي وجدتي لأمي . لم يَشْهَدْ فرحاً واحداً على زماننا، باسْتثناءِ عُرْسَيْن اثْنَيْن حُرِمْنا من حضورِ أحدهما لخلافاتٍ حَصْريّة داخل العائلة، والآخر كان فرَحاً باكياً ومُبْكياً أشْبه بموسيقى جنائزية يختلطُ فيها النّغَمُ والإيقاعْ بالحُزْن والدموعْ. هو يَكْبرُني ببضعة شهورٍ ويَرْجحني عَقْلاً وسَعةَ حيلة. وأنا أفوقه بَسْطةً في الجِسْمِ ومهارةً في تحصيل العِلْم. اجْتَزْتُ أعوامَ الدّراسة الابتدائيّة السِّتّة دون تَعثُّرٍ والْتحقْتُ للتَّوّ برَكْبِ الدراسة الإعدادية، تاركاً إيّاه يُعافرُ في السّنةِ الرابعة الابتدائية بعْدَ رسوبِ عامَيْنِ مُتتاليَيْن، مُبرّراً تخلُّفه باضطّهاد المعلّمين له. أمّا هي . تلْك التي قَرَّرْنا أن نتقاسَمها بطريقة المُشاركة بالوَقْت . فهي فتْحيّة الشَّغّالة. جيء بها من إحْدى القُرى المُجاورة ذاتَ صباحٍ شتْويّ بارِدْ، نحيلةً حافيةَ القَدَميْنِ ببَشْرةٍ بيضاء شاحبةٍ ووجهٍ بيضاويّ لطيف التقاطيع وشَعْرٍ أصْفر بادي النعومة. جاءتْ بِرِفْقةِ أبيها . الذي بدا واضحاً أنها ورثتْ عنه بياضَ البشرة واستقامة العودِ ونحوله .

لتخدمَ في بيت العائلة الكبيرْ. أشيعَ على نطاقِ العائلة أنها تكبرُنا بعاميْن اثْنيْن. لكنها وهي تجتازُ عامَها العاشرَ ـ بحسابِ العائلة ـ شهدَ جسدُها طَفْرَةً وفوراناً أرْبكتْنا وأرْبكتْ ـ مِنْ ثَمَّ ـ حساباتِ العائلة. لعلّنا أخطأنا في تقدير عُمْرِها حين جاءتْنا، ورُبّما هي حالة بلوغٍ مُبكّرٍ كتلك التي تعتري بعض البناتْ، فتتحوّلُ ـ بين لَيْلةٍ وضُحاها ـ إلى أنثى مُكتملة النُّضْجِ والأنوثة. أيّاً ما يكون الأمْر، فقد تحوّلتْ فتحيّة من حالٍ إلى حالْ. استطالَ جسدُها بَغْتةً وامتلأ قليلاً بطراوةٍ ريّانة وبرزت تضاريسه في إصْرارٍ غريبٍ على التَّمَرُّدِ والنفورِ عن منظورِ الجسدِ، لكنْ بتناغُمٍ واتّساقْ. واصْطبَغَ وجهها بحُمرةٍ شَفقيّةٍ مُحَبّبَة أشبه باحمرار تُفّاحةٍ في سبيلها إلى تمامِ النُّضْج. تُفّاحةٌ ـ في زَمنٍ لمْ يكن التُّفاحُ فاكهةً من فواكهنا المعروفة ـ اتّفَقْنا أنا وهو على أن نقتسمها قِسْمَةً عادلة، وطِبْنا نَفْساً لأنَّ عراكاً من عراكاتنا الكثيرة انتهى بسلامْ. لكنْ بقيت المُعضلةُ الأمّ: كيف نضعُ اتّفاقَنا هذا موضعَ التنفيذْ..؟! فتْحيّة التي بلغَتْ مَبْلغَ النّساءِ ولابُدّ أنّ دورة الطَّمَثْ قد وافَتْها ـ بدتْ أشبه بمُهْرةٍ جامحة تَسْبقُ خُطانا المتعثّرة عند سِنيّ الصّبا الباكر، نلْهثُ خلفها رَكْضاً دون أن نمسَّ شَعْرةً منها. اتّفَقْنا على أن يَشْرَعَ كُلٌّ منّا على حدة في ترويضها، وتعاهَدْنا على أن يتنازلَ منْ يَظْفِرْ بها عن نِصْفِ الغنيمة لأخيه. عَهْدٌ كان كلانا أو أحدُنا على الأقلّ يوقن يقيناً لا شَكّ فيه أنه سوف يَحْنثُ به. فكيف يتنازلُ عاقلٌ طَوْعاً عن نِصْفِ ثروة نفيسة كهذه..؟! ثَرْوة تتكاثرُ كلّ طَلْعةِ نهارٍ وتنجلي محاسنُها للعيانْ..؟! كُلّ زيارةٍ لدارِ جَدّي كانت أعْيننا تَرْصدُ تَغُيُّراً جديداً في ملامح الوجه وقسماته، وتفاصيلِ الجسدِ الفائرِ فوراناً لا يَهْدأ ولا يَقِرُّ على حالْ. هلْ كان ما نراه حقّاً وصِدْقاً أم أنها صورةٌ مُجسّمةٌ ومُبالغٌ فيها تجسّدتْ في مخايلنا الصَّغيرة، في وقتٍ تعاقبتْ فيه الأحزان والكآباتُ على دار جَدّي..؟! بدَتْ فتحيّة ـ ببلوغها المُبكّر والانفجار الكوْنيّ في كيانها ـ كغُصْنِ شَجرةٍ لم يبْقَ فيها أثرٌ للاخضرار سواه. تزامَنَتْ سنواتُ تَفَتُّحها واخضرارها ـ تزامناً غريباً ـ مع طوفانِ حُزْنٍ اجتاحَ الدّارَ وبقي مُخيّماً عليْها سنواتٍ صَبَغَ كُلَّ شَيْءٍ فيها

بِصِبْغَته. بدأ الأمر برحيل خال أمّي الذي كان قد تحوّلَ ـ بفِعْلِ العُمْرِ والمرضِ وخسارته لكُلّ ما يملك في التّجارة ـ إلى شَبحٍ يُخيفُنا منظره، فنفرُّ منه مذعورينْ. لم يكُن وجوده مُفيداً أو حتّى مَرْغوباً فيه، ولا كان مَوْتُه مُفاجئاً حتّى تنفطرَ عليه القلوب، ومع هذا سادَ جوّ الحُزْن دار جَدّي ولبسَ النّسْوة ثياب الحدادْ، فتلوّن كُلُّ شَيْءٍ بلوْنٍ قاتِمْ. ماتَ جَدُّنا أحمد بعد احتضارٍ طويلٍ تخلّله برَمٌ وضيقٌ من الكبارِ لما تحمّلوه من عناءِ رعايته والسّهَرِ عليْه، وزَهَقٌ ونفادُ صَبْرٍ منّا نحن الصّغار الذين أصبح لعبهم وضحكهم وكُلّ حركاتهم وسكناتهم بحسابْ، حتى لا نُزْعج الجَدَّ المريضْ. ومع هذا كان حَتْماً علينا أن نرْزَحَ زمناً في دارِ جَدّي تحتَ مراسم الحدادْ. لم تكدْ سحاباتُ الحُزن تنقشعُ قليلاً ونتنفسُ الصّعداء حتّى مُنِيَتْ العائلةُ بفاجعةٍ جديدة. ماتَتْ جَدّتي لأمّي بعد فترةٍ مرضٍ وجيزة. كانت زاهدةً أصْلاً في الحياة، متاعُها من الدّنيا قليلٌ حَدّ الكفافِ وحظُّها من الزّادِ ضئيلٌ كعصفورْ. عاشتْ وماتتْ كطيْفٍ لا نشعرُ بحضوره أو غيابه. لكنَّ الحُزْنَ في دارِ جَدّي هو فَرْضُ عَيْنٍ على الأحْياءْ، كأنّه جِزْيَةٌ يؤدّونها طَوْعاً لقاءَ بقائهم على قَيْد الحياة. يَسْتوي في ذلك الأعْلامُ والنّوافلُ والمتونُ والهوامشُ من أمْواتهم. عادتْ أيّام الحدادِ الطّويلة بمراسيمها وطقوسِها وأجوائها القاتمة المُقبضة. حتّى حين أراد الكبارُ نَزْعَ فتيلِ الحُزْن وإبطالَ تعويذته في الدّارْ، تحوّلَ فَرَحُ خالي إلى عُرْسٍ جنائزيّ تختلطُ فيه الزغاريدُ بالدّموعِ ومَصْمصة الشفاه أسفاً وتَرَحّماً على الغائبين الذين تخطّفتهم يَدُ الموْت. ثُمّ مالبث هاجسُ الإنجاب الذي تأخّرَ شهوراً طويلة أن تحوّلَ إلى كابوسٍ ثقيلْ، وبلاءٍ عظيمْ، يتوسّلون في صَرْفه بالمشايخِ والسّحَرَةِ والجانِ والأحجبة والتّمائمْ. فتحيّة كانت الاسْتثناءَ الوحيد الخارجَ عن طوْعِ العائلة. غافلَتْ الجميعْ، ضاربَةً بغَمّهمْ ونواحهم وخَيْبَةِ مساعيهمْ عَرْض الحائطْ، شاهرَةً سَيْفَ الحياةِ في وجْه المَوْتِ البليدْ واليأسِ المُطْبقْ. نحن الصِّغار كُنّا أكثرَ الضّائقين ذَرْعاً بسماجةِ الحياةِ وثِقَلِها في دارِ جَدّي، ومنْ ثَمَّ أكثرهم تشبُّثاً بعُصارةِ النُّسْغِ التي تدفَّقَتْ في شَجرَتها اليابسة. فَتْحيّة. تغيُّراتُ النُّضْجِ في

جسدِها اقْتَرَنَتْ أيضاً بخِفَّةِ ظِلٍّ ومَيْلٍ فِطْريٍّ إلى الضَّحِكِ والمُشاكسَة، خَصَّتْني أنا بقِسْطه الأوْفَرْ. رُبّما لأنّها أحسَّتْ بغريزةِ الأنْثَى المُتفتِّحة تَوّاً للحياة، أنّي أكثَرُهُمْ ولَعاً وافْتتاناً بكنوزها البِكْر. ورُبَّما لأنّي كُنتُ الأقْرَبَ عُمراً منها. ورُبّما لأن ظروف تلك الأيام وملابساتِها شاءتْ أن أكون حاضراً طيلة الوَقْتِ بمقربةٍ منها في حين أبعدتْ غيري وبالأخصّ غريمي وشريكي . في آنٍ واحد . ابْن خالتي. ورُبّما هي كُلُّ هذه الأسبابِ مُجتمعة وأسبابٌ أخرى غيرمنظورة مثل كيمياءِ الجسدِ التي تجعله يَتفاعلُ أو تُثبّط تفاعلَه مع الآخرين. طالَتْ أيام الإجازة الصّيْفيّة في ذلك العامْ. وطالتْ أوقاتُ الخُلْوةِ معها. صارَتْ تُسِرُّ إليَّ بنوادرها ونوادر أهل البيت والمُتردّدين عليه فنَضْحكُ من قلْبَيْنا. وتَخُصُّني بأسرارها الصَّغيرة موصيةً إيّايَ ألاّ أبوحَ بها لكائنٍ مَنْ كانْ. أسْرارٌ ينوءُ بها عُمْري الصَّغيرْ وتملؤني حيرةً وارْتباكاً. خالي . في غَمرةِ إخفاقه وعَجْزه وشُبهاتِ الرجولة المنقوصة في صَفحاتِ الوجوهِ ونظراتِ العيون . تحوّلَ إلى وَحْشٍ كاسِرْ. دَلّتني على آثارِ الصَّفْعِ في وَجْهِها، وكشفَتْ لي عن مواضِعِ الرّكْل في جَسَدِها. كيفَ غابَتْ عن عَيْنيّ الفاحصتيْن مواطئ يديْه وأرْجله في هذا الجسَدِ الغَضّ..؟ أم أنّه شُغْلي بتحوّلاتِ الأنوثةِ في جَسدِها ألْهاني عن تحسّسِ آثارُ العدْوانِ عليْه..؟! وكيْفَ طاوعه قَلْبُه ليَنْتهك حُرمةَ هذا الجمالِ ويُدنّسَ محاسنه..؟! وجَدّي الأرْمَلْ يتحيّنُ الفرصَ ليختلي بها، ليتَحسّسَ مواطن جسدِها فتفرُّ منه مذعورة.

. جَدّي..؟!

. نعمْ..

وتَبلعُ ريقَها قبل أن تُضيفَ بصوتٍ واهنٍ ووجهٍ مُصطبغٍ بالحُمرةِ خَجلاً:

. هذا الكلامْ لا يَخْرُج لأحدٍ أبداً..

. لماذا..؟!

تُجيبُني بانكسارِ عَيْنَيْها وصَوْتها وكُلُّ ذَرَّةٍ في كيانها:

. لأنه لا أحدَ سيصَدّقُ حَرْفاً ممّا أقولْ.. سَيُنكره الصّغيرُ قبل الكبير.. ويَقْلبون الدَّفّةَ عليّ..!!

رَغْمَ خلْواتنا الطويلة بقيت فتحيّة فاكهتي المُشْتهاة والمُحرّمةَ معاً. حين ولِجَتْ بي في عالمِ الأسْرارِ أسْدلَتْ . من حيثُ لا تَدْري . بيننا ستارةً شَفّافة، لا تحجبُ رغبتي فيها تماماً، لكنّها تُحلُّ معها نوْعاً من الألْفة . ألْفة الرّوح والجسد . فبعْضُ التَّعَرّي يُثيرُ فينا شهوةَ الكشف والاسْتحواذ، وبعضه الآخر يُطْفئُ رَغْبَتَنا ويُدْهمنا بطوفانٍ من التعاطُفِ والإشفاقِ فنُسْدلُ عليه غلالةً من حياءٍ تَسْتُره. عُرْي فتْحيّة . وهي تُسرُّ إليَّ بأوجاعها وتكشفُ لي مواطنَ الألَمِ وكدماتِه في جسدِها . كان مشوباً بانكسارٍ وعَجْزٍ وقِلّةِ حيلة وهشاشةٍ تجعلكَ تَخْشى عليْه من نَسْمةِ هواءْ، فما بالُكَ بانتهاكِ حُرْمتِه وإطفاءِ نارِ شَهْوتِكَ فيه..؟!. ابْنُ خالتي رضا المولَعُ بالمُغالبةِ واجتراحِ الأكاذيبْ، أثارَه قُرْبي منها واعتصامي بالصّمتِ كُلّما جاءتْ سيرَتُها فبادرني يوْماً والغضبُ يَملأ وجهه ويُطلقُ شرَرَ عَيْنيْه:

. لمْ يكُنْ هذا اتّفاقَنا..!!

. أيُّ اتّفاقْ..؟!

. ألَمْ نَتّفقْ على اقتسامِها بيْننا..؟!

. لمْ أحْصُلْ على شِيْءٍ منها.. حتّى أقتسمه معك..!!

تراجَعَ قليلاً عن غضبِه مُطْمئنّاً إلى صِدْقِ قَوْلي. وأجابَ بعد بُرْهةِ صَمْت، مُستعيداً رباطة جأشِه وكبرياءه:

. أمّا أنا فهي تتوسّلُ لي وتُلِحُّ عليّ وتَتَمَسّحُ فيَّ.. لكنّي أتهرّبُ منها حتّى نقتسمها معاً..!!

ومَضَى يحيكُ من الحكاياتِ ويَمُدُّ من أحبالِ الكذبِ ما يُخرجُ الحليمَ عن صَمْتِه، لكنه لم يُزَحْزِحْني قَيْدَ أنْملَة عن عهدي مع فتْحيّة. بين اعتصامي بالصّمتِ وأكاذيب ابْن خالتي مضَتْ أيّامُ صبانا الباكرْ، واسْتوتْ فتحيّة أُنثى ريّانة العودِ حُلْوة القسماتِ، تملأ دارَ جَدّي بضحكاتِها وحركتها الدائبة وحضورها الفاتنْ. لكنْ جاءَ وقْتٌ خلَتْ فيه الدّارُ من فتْحيّة وعادتْ الدّارُ إلى سابقِ عهدها من الكآبة والوَحْشَةِ والرّثاثة. رَحيلُها كان مُباغتاً ومَلْغوماً بصَمْتٍ أشبه بالخَرسِ أرْبكَ حواسّنا واسْتغْلقَ على أفهامِنا نحن الصِّغارْ. عبثاً رُحْنا نُحدّقُ في وجوه الكبار، نُفتّشُ عن معْنىً أو دلالةٍ في ملامحهم المُتشابهة الجامدة كأنّها مقدودةٌ من صَخْر، نَرْصُد نظرةً مُتبادلة بين عيونهم العميقة الخاوية كآبارٍ جافّة سَحيقةِ الغَوْر، نلتقطُ همسةً هنا أو هناك تتساقطُ من أفواههم كفتاتِ الخُبز المَمْضوغْ. عبَثاً حاولْنا العثورَ على خيْطِ نورٍ يُضيءُ لنا الدّرْبَ إليْها، يكشفُ غموضَ رحيلِها المُفاجئ، يفكُّ ألغازَ الوجوه والعيونِ والأفواه المزمومة على سِرّها. كان عَليْنا أن نُمْضي أيّاماً فأسابيع فشهوراً طويلة في هذه المتاهة، بكُلِّ برودها المُقْبض وظُلْمتها الموحشة وأسْئلتها المُؤرّقَة، قبلَ أن ينجلي سِرّ هذه الأيقونة . أيقونة صبانا الباكرْ . ويأتينا من قَرْيَتِها البعيدة خبرُ موْتها، مُتأخّراً كثيراً عن موعده، مُلَطّخاً بطراطيشِ كلامٍ كثيرٍ عن فضيحة البَطْن المُنتفخة، وشَرَفِ الأهْل الذي لا يَغْسلُه غيرُ الدّم.

الثُّعْبانْ

1

كُلُّ مَنْ دخلَ بيْتها رآه. وكُلُّ مَنْ رآه قالَ إنّه شَيْء مهولْ لم يَشْهَدْ مثله من قَبْل. ثُعْبانٌ ضَخْم، لفرْط ضخامته يُخالُ إليْك أنه ثُعبانٌ برأسِ بشَرْ. عيناه الحمراوان تُطلقانِ سَيْلاً من شررٍ، وفمه الفاغرُ عن لسانه المشقوق يُصْدرُ فحيحاً مُخيفاً يُشلُّ جسدك ويُلْجمُ أعضاءك عن الحركة. في لحْظةٍ ما من لحظاتِ الاستغراقِ في النومِ العميقْ، لحْظة يتخيّرُها هو بحُنكةٍ ودربةٍ وتَمَرُّسٍ غريبٍ بالشَّرّ والأذى، تُفيقُ من نومِكَ لتراهُ مُطلاً عليْكَ برأسه من فَرْجةِ البابْ. ثوانٍ، وأنتَ في غَمْرَةِ الرُّعْبِ وغبَشِ الصَّحو وتشوّشِ الرؤيةِ ووقْع المُفاجأة وبشاعة المَشْهد والإحساس المُقبضِ بالخطرِ الدّاهمْ، تراه يَتحرّكُ نحوكَ وئيداً، قاصداً إيّاكَ دون غَيْرِكْ، وأنتَ مُسْتسْلمٌ منزوعُ القوى ليسَ ثَمّة من نبضة حياةٍ أو قطرةِ دمٍ في جسدك، سوى عَيْنَيْن مُتّسعتي الحدقتيْن مملوءتيْن رُعْباً من هوْلِ وبشاعَةِ ما تَرَى. في مُنتصَفِ المسافة تماماً بينك وبين هذا الزّاحفِ نحوك في تَصْميمٍ وتؤدةٍ ووثوقْ، وحين يكون رُعْبُكَ قد بلغَ ذِرْوته فأحالكَ إلى شِبْهِ جُثّةٍ مَغْشيٍّ عليها من المَوْت، يتوقفَ الثُّعْبانُ ويَلْتَفُّ حول نَفسه برشاقة عائداً أدراجَه من حيثُ أتَى. عندها تَدُبُّ الحياةُ في جسدكِ رُويْداً ويتدفّقُ الدّمُ الهاربُ ثانيةً إلى أعضائك، ويستعيدُ ذهْنُك . المشلولُ تماماً عن الفَهم والتفسير والتّنبؤ بالمجهول . بَعْضَ نشاطه، لكنّك تظلُّ مسكوناً بذاتِ الخوفِ المُلْجم، فتتكوّرُ على نفسكِ وتتضاءلُ في مرقدِكَ حدّ التّلاشي، إلى أن يطْلَعَ عليْك صباحُ يومٍ جديد يُضيء لك طريقَ الخروج من دار ظريفة.

2

أكثر مَنْ أصابه الرُّعْبُ من هذا المَشْهد، ولازَمه بعد ذلك حتّى فارق الحياةَ بعد بضْع ليالٍ من مبيته بدارِ ظريفة، هو عبد المجيدْ نفَر الفلاحة عند آل عِثْمانْ. زَجّوا ـ في البداية ـ بالمُعْدَمين والأجراءِ الذين لا يهابون المَوْت لأنّ الحياةَ لم تمنحهم ما يخشَوْنَ فَقْده، لكنْ بعد أن شاعت الحكايـة وسالَ لُعابُ النـاس فضولاً ودَهْشـة، تطوّعَ البَعْضُ من أواسط أهل قرْيَتِنـا ميسوري الحال بالمبيتِ في دار ظريفة. وجميعهم لم يحتملوا أكثرَ من ليْلةٍ واحدة خرجوا بعدها مع أوّل خيطِ ضوءٍ للنهارْ صُفْرَ الوجوه ذاهلين عمّا حوْلهم من هوْلِ ما رأوْه، ولا أحد منهم يفتحُ فمه بكلمة. يبقى الواحد منهم على هذه الحال يوماً أو بعضَ يوْم، ثُمّ سُرْعان ما يثوبُ إلى رُشْده ويستعيد رباطة جأشه، نافضاً يده من الحكايةِ بِرُمّتِها، مُعتصماً بسِرّه لا تُجدي معه محاولاتُ النـاس لاستنطاقه كي يبوح لهم بما رأى. وحْده عبد المجيدْ نفر الفلاحة عند آل عثْمان . المولَعُ حَدّ الهوسِ بشراء الكراملّة والحلاوة الطحينية من بقالة عَمّ علي الصّعيدي بكلّ ما تيسّر له من نقودٍ أو كيزانٍ ذُرةٍ أو حفانِ قَمْحٍ، والْتهامها بتَلّذُّذٍ واسْتمتاع . مَنْ لازَمَتْه نَوْبَة الرُّعْبِ فراح يَهْذي وهو يَرْجفُ كالمحمومِ بكلامٍ لم يُميّز الناس منه سوى عبارة: لم أرَ شَيْئاً كهذا أبداً..!! بقي أيّاماً حبيسَ الدّارِ وهو على هذه الحال حتى وجدوه ميّتاً في فراشه ذاتَ صباحْ.

3

أوّلُ ظهورٍ للثُّعْبان في دار ظريفة الحوَتيّة كان بعد رحيل زَوْجها بشَهْرَيْن أو أكثر قليلاً. بعد عِشْرة أعْوامٍ لَمْ يُرزقا فيها بولَدْ، فُجعَتْ ظريفة بموْتِ زوجها عمّ محفوظ رَجُل الإطفاء الذي اشتهرَ بين أهل الحارةِ بِجَرْأتِه وإقدامه في إطفاء الحرائق. كانت ميتةً غريبةً فاجأتنا جميعاً، فهو فَحْلٌ فارعُ الطّولِ موفور العافية لا يذكرُ أحدٌ أنه مرضَ يوْماً أو شكا منْ عِلّة.. فما بالُكم بزوْجةٍ مكلومة..؟! هي الأخرى فارعة الطول بامتلاءٍ مُحبّبْ، اشْتهرَتْ بنعومةِ مَلْمسها وحلاوة لسانها وصوْتها الأبَحّ حين تتحدّثُ أو يتهلّلُ وجهها بالضّحكْ. بعد رحيله المُباغِتْ، صحا أهل الحارة يوماً على وَلْولَة ظريفة وهي تنتحب وتَرْقَعُ بالصّوْت حُرْقَةً والْتياعاً. ولأنّها بلدةٌ صغيرة تُسْمعُ فيها رَنّةُ الإبرة إذا سقطت على الأرض كما يقولون، سَرَى الخبر في عموم البلدةِ والْتَمّ أهْلُها وجاءَ القاصي والدّاني ليُشْبع فضولَه ويَرَى عن قُرْب ما تواتر على سَمْعه غَيْباً. قالتْ ظريفة: ثُعْبانْ..!! واسْتطْردتْ وسْط حالةٍ من الهياجِ والتّشَنُّج والعويلِ المُتقطّعْ: ثُعْبانْ.. لمْ أرَ له شبيهاً..!! ومَضَتْ . وسْط ذهول الجَمْع المُتحلّق بها . تصفُ صورةَ وحْشٍ على هيئة ثُعْبانٍ داهمها في اللّيْل، وظلّ يُحدّقُ فيها بِعَيْنَيْه الحمراوَيْن وفمه الفاغر ولسانه المشقوقْ حتّى أذان الفَجْر. ثُمّ تنخرطُ في بكاءٍ مُلْتاثٍ تهجعُ بعده إلى فترةِ صَمتٍ دامع تتلقّى خلالها مواساة الحاضرين وطمأنتهم لها بأنهم لن يتركوها وحْدها، حتّى يَفدَ إلى الحارةِ فَوْجٌ جديدٌ من النّظّارة وأهل الفضولِ فتستأنفُ روايتَها وسْط عويلٍ ودموعٍ لا تنقطعْ.

4

قَرَّ قرارُ أهْل العَقْد والحَلِّ في الحارَة على ألاّ يتركوها وَحْدَها في هذه المِحْنة. واتفقوا ـ بعد أخْذٍ ورَدّ ـ على أن يبيت معها كُلّ ليلة واحدٌ مِمّن يتوسّمون فيهم جسارةَ القَلْبِ ورباطة الجأش، فبدأوا بأنفار الفلاحة من الأجراء المُعْدمين، وثَنّوا بعد ذلك بكُلّ من غلبه فضولُه فتطوّعَ بالمبيتِ، فلَمْ يحْتملْ أحدهم المبيتَ أكثر من ليْلةٍ خرج بعدها مخضوضاً مبهوتاً ذاهلاً عمّا حوله، لسانُه معقودٌ فإذا ما انْحلّتْ عُقدة لسانه لا يجود بأكثر ممّا قالَتْه ظريفة. أمّا ظريفة ذاتها فقد طابتْ نَفْساً وخلعتْ ثوبَ حدادها على زوجها الفقيد، وصارتْ تتزيّنُ وتُكحّلُ عَيْنَيْها وتجلسُ عند عتبة بابها تُجاذبُ جيرانها والعابرين بها أطرافَ الحديثِ بدَعةٍ وأُنْسٍ كما في الأيام الخوالي. بَعْدَ بضعة شهورٍ من استضافة ظريفة لكُلّ شبابِ أهل الحارةِ وأغلبِ شباب البلدة ثُم مَنْ هم في أواسط العُمر وعددٍ لا يُسْتهانُ به من الكهول، والثُّعْبان رابضٌ بالدّارِ لا يَبْرحُها، رأى أهْلُ الرأي والحِكْمة في البلدْ أن يستعينوا بأحد الرّفاعيّة من المُتمرّسين بترويض الثعابين علّه يجدُ صِرْفةً في هذا البلاءْ. ولقي هذا الرّأي اسْتحسان ظريفة الحوتيّة.

5

جاء أو جيء به من إحدى البلاد المُجاورة. قيلَ إنّه ذو باعٍ طويلْ في التّعْزيم على الثعابين والحيّاتْ، وراجَتْ حوله قصصٌ وحكاياتٌ سبقَتْ مجيئه. جاءَ بجسده الناحل وجلده المدبوغِ كعودِ سَنْط، وباتَ ليْلتَه بدار ظريفة، وخرجَ صبيحة اليوم التّالي ليُعْلنَ على الملأ أنْ لا أثَرَ لثُعْبانٍ بالدّارْ. وهذا الذي رأتْه ظريفة ورأيناه كُلُّنا رأي العَيانْ..؟! أجابهم باقتضابٍ وبيقين الواثقِ المُدلّ: الدّارْ نظيفة.. نظافةَ الثّوْبِ الطّاهرِ من الدَّنَسْ..!!

6

حين أنْكرَ ما هو مَعْلومٌ لأهْلِ البلَدِ بالضّرورة، خرجوا عليه خروجَ رجُلٍ واحدْ، بطوبِهم وحجارتهمْ ونبابيتهم، يُطاردونه مثلَ كلْبٍ مَسْعورْ، وهو يَرْكُضُ أمامهم مُشَمّراً ذَيْل ثَوْبِه مُطْبقاً عليه بأسنانه، مُطلقاً ساقيْه للرّيحْ، كُلّما أصابه حجرٌ في موْضعٍ من جسْمه يعْوي ويئنُّ كحيوانٍ مُحْتضرْ، حتى تاه منهم في الزراعاتِ فلم يعْثروا له على أثَرْ. أمّا أهْل البلْدة الذين لم يظفروا به حيّاً أو مَيّتاً فقد عادوا قانعين من الغنيمةِ بالإيابْ، وعادتْ دار ظريفة أيْضاً سيرَتَها الأولى، تسْتقبلُ كُلّ ليْلة وافداً جديداً من أهل المروءة، يقضي ليلته ويخرجُ صامتاً ذاهلاً عمّا حوله لا ينْطقُ ببَنْت شفة.

أهْل البِلادْ

هي لُعْبة. لُعْبَةٌ شِرّيرَةٌ نوْعاً ما ولئيمةٌ شَيْئاً ما، لكنّها تُميتُ من الضَّحك. ننتظرُ من الإثْنيْنِ إلى الإثْنيْن الذي بَعْده عبوراً بستَّةِ أيّامٍ طوالْ تبدأ بيومِ الثّلاثاءِ وتَنْتهي بنهارِ يومِ الأحَد، لأنّنا نَشْرَعُ في أماسي الآحادِ بإعْدادِ عُدَّتِنا للُّعْبةِ التي تندلعُ أولى شَراراتها في ظهيرة اليَوْمِ التالي. فالإثْنين هو يوم السّوق ببلْدتنا. ولأنها بلْدةٌ وسَطٌ بين القَرْيَةِ والمدينة بها مَرْكزُ الشُّرْطة والمدرسة الإعْداديّةُ والمُسْتشفى المَرْكزي الوحيد من نوعه، وبها محالّ تجارةٍ للبقالة والأقْمشةِ والعطارة والخردوات والفاكهة والخُضَر واللّحومِ والأسماك الطّازجةِ والمُمَلَّحة، وفيها كُلُّ ما يَخْطرُ ببالِكَ من المهنِ والحرَفِ بدءاً بالدّكاترةِ والمُحامين والكَوّائينَ والحَلاّقين وانتهاءً بالسَّمْكريَّةِ والحدّادين وقَصّاصي الحمير وحَدّائي الخيْلِ ومُبيّضي النّحاس، لأنّها كذلك فهي قبلة كُلّ الكفورِ والعزبِ والقرى الصغيرة المُحيطة بها، يقصدُها أهْلُ تلك البلداتِ الذين كنّا نُطْلقَ عليْهم تسْمية (أهْلَ البلاد) . خاصّةً أيّام السّوقِ . لقضاءِ حوائجهم وكِسْوة عائلاتهم وتطْبيبِ مَرْضاهم ودوابّهم وإصْلاحِ ما تلفَ من بوابيرِ جازٍ أو أواني طَهْيٍ أو آلاتِ حَرْثٍ وفلاحة. أهْل البلادْ.. تَسْميةٌ فيها من الاسْتهزاءِ والاستصْغارِ وتقليلِ الشّأنِ أكثرَ ممّا فيها من تقريرِ حالٍ واقِعْ. يَكْفي أن يقولَ لك أحدهمْ: هو واحدٌ من أهْلِ البلاد.. لتُدْرِكَ بحَدْسِك قَدْرَ ما يتمتّعُ به من غباءٍ وغَفْلةٍ وضيقِ أفقٍ وقِلّة إدراكٍ وانْعدامِ ذَوْقٍ ولياقة. وكم من نُكتٍ وطرائفَ ونوادر تُحْكى عن هؤلاء وتنتشرُ بيننا انتشارَ النارِ في القَشّ، وكُلُّها تَسْخرُ من سَذاجتهم وجَهْلهم. فهمْ أهْلُ الأطرافِ والبقاعِ النائية المحرومة من نورِ العِلْمِ والمدنيّة، أمّا نحْنُ فأهْلُ البَنْدرِ المُتعلمون المُطّلعون على حقائق الحياةِ وقارئو الصُّحفِ المُنفتحون على الدُّنيا شَرْقها

وغَرْبِها. ونحنُ أهْلُ تجارةٍ وشطارةٍ نَلْعبُ بالبيْضَةِ والحَجَرِ ونَعْرفُ من أين تُؤتَى العجيبة والغريبةُ ومِنْ أيْن تُؤكلُ الكتِفْ. سَمِعْتُ أمّي . مَرَّةً . في عراكها مع زَوْجة خالي وهي تَسُبُّها بِقَوْلِها: يا حَوَش البِلادْ..!! فلَمْ أُكَذِّبْ خَبراً وافْتعلْتُ شِجاراً في اليومِ التالي مع أحد تلامذة الفَصْلِ من العزب المُجاورة. كان مريضاً مهزول البدن أصفرَ لون البشْرة فرأيْتُ فيه ضالّتي المنشودة وتَلَكَّكْتُ له ثُمَّ لَطَمْتُه على وجْهه صارخاً فيه: يا حوَش البِلادْ..!!

أمّا اللُّعْبة ذاتُها . لُعْبَةُ يَوْمِ الإثْنين من كُلّ أسْبوعٍ أو لُعْبَةُ السّوق كما شاعَ اسْمُها بيْننا . فهي أبْسطُ من البساطة، وأغْلَبُ الظّنّ أنها شائعةٌ في عمومِ المراكز والبنادرِ التي تَسْتَهْزئُ مِثْلَنا بأهْلِ البلادْ. نأتي . نحنُ الصِّبْية . بورقِ الكُرّاساتِ القديمة فنصْنع منها قراطيس نضَعُ بها الرّمْل والترابَ ونُغلقها حَتّى تبدو شبيهةً بقراطيس البَقّالين التي يبيعون فيها الشّايَ والسُّكّرَ وغيرها من البقالة. ونأتي بورقِ اللّحم المُقَوّى فنضَعُ به مقداراً من الطّينِ ونَلُفُّه كما يلُفُّ الجزّارون لِفافات اللّحْم، ونتفَنّنُ في تنويعِ أحجامها حتّى تبدو كلفافة الرّطْلِ أو الرّطْلَيْنِ أو الأقّةِ من اللّحْم. فإذا كانت ظهيرة يوم السّوق وبدأ زبائن السّوقِ من أهْلِ البلاد يَتقاطرون في طريق العودة، تَسَلَّلْنا إلى الطّريق ورَمَيْنا بِقِرْطاسٍ من التُّراب أو لفافَةٍ من الطّين وعُدْنا إلى مَخْبَئنا خلفَ باب البَيْت نَرْقُب ما يَفْعلُه المارّة. كان الواحد منهم يأتي راجلاً فتقعُ عيْناه على القِرْطاسِ أو اللّفافة فيتوقَّفُ قليلاً ويَتَلَفَّتُ حوْلَه يُمنةً ويَسْرة فإذا ما اسْتوثقَ من أنه بمأمنٍ من عيونِ الناس انحنى فتناولَ القِرْطاس ودسَّه في جَيْبِه أو مال إلى جانبِ الطريق وفتحه في فضولٍ ليرَى ما بداخله، وحين يخيبُ ظنُّه يَقْذفُ بقرطاسِ التُّرابِ أو الرّمْلِ بعيداً أو يُلْقي به في ماءِ التّرْعة وهو يَتلفَّتُ حوله لِيَسْتوثقَ مَرَّةً ثانيةً من أنّ أحداً لمْ يَلْحَظْ خيْبة أمله إلى أن يَدْهمه ضَحكُنا وتهليلنا ونحن نُغادرُ مكْمننا خلف البابِ مُظْهرين له أنْفُسنا في تَشَفٍّ جارِحْ. والبعضُ منهم يأتي راكباً ركوبَته فيَلْمحُ اللّفافة المُلْقاةَ على جانبِ الطَّريقِ فيظلُّ لحظةً

مُتردّداً بين إيقافِ دابَّتِه وبين مُتابعة السَّيْر ورُبّما يسْتغرقُ تَرَدُّدُه بضْعَ ثوانٍ يكون قد تجاوز فيها موضع اللّفافةِ، فيَعود أدراجه وهو يَترقَّبُ خُلُوّ الطريق من حوله، ويَترجّلُ عن دابّته ويلتقط اللّفافة الشَّبيهةَ بلفافةِ اللّحْمِ ويَفْتحها من أحدِ طَرفيْها مُتحسّساً ما بداخلها، وحين تتلطّخُ يدُه بالطّين يَفُضُّها في غَضَبٍ ويُلْقي بها وسط ماء التُّرْعة ويميلُ على جذْعِ شَجرَةٍ يَمْسَحُ بها أصابعه ساخطاً قَبْل أن ينتبه على صَخبِ الضَّحك والصِّياح المُنبعث من جوقة الصِّبْية الّذين دَبّروا له هذه المكيدة. بعضهم يعود فيمتطي ركوبته ويُتابع طريقه صامتاً، والبعض الآخر قد يسُبُّ ويَشْتُمُ قبل أن يعود أدراجه، وقليلٌ منهم يَشْفي غليله بِقَذفنا بطوبةٍ أو اثنتيْن وهو يُمطرنا بوابلٍ من شتائمه، فما يزيدُه تهليلنا وسُخريتنا منه إلاّ غضباً ونَقْمة. امْتحانٌ غريبْ لم يَحْدُثْ مَرَّة أن تجاوزه أحدٌ بنجاحْ، الكُلُّ كانوا يَسْقطون في شَرَكِ الطّمعِ لا تَنفعهم مُحاولة سَتْرِ العَوْرةِ بعد فواتِ الأوانْ. وَحْده عَمّ غريب الطّبّاخْ كان الاسْتِثْناءَ من القاعدة. هو رَبْعَةٌ أقْرَب إلى الامتلاءِ، بِجُلْبابِه الإفْرَنجيّ ذي الياقة وطاقيته القِماشْ وملامحه الوادعة المُطْمئنّة ومِشْيَته الوئيدة وموعده الذي لا يتغيّرُ أو يَتَبَدّلْ. يَعْملُ طاهياً عند جماعة أبي ناعمْ في عِزْبتهم المُسَمّاة باسْمهم التي تبعدُ مسيرة السّاعة سَيْراً على الأقدامْ، ونِصْف هذا الوَقْت تقريباً على ظهْرِ دابّةٍ من الدّوابّ. موعده صبيحة الإثْنيْن من كُلِّ أسْبوع، يأتي راجلاً على قَدَمَيْه قاصِداً السّوقْ. حين يَصلُ إلى منزلنا . وهو أوّل منازل البلدة للقادمين وآخرُها للعائدين . يقفُ مُتطلّعاً إلى أشجار الموْز التي تحفُّ ببابه البَحَريّ، قَبْل أن يَطْرق البابَ بِلُطْفٍ طالباً شُرْبة ماءْ. وحين يُصادفُ أحداً من أهْل البَيْت يقفُ لحْظةً ليتجاذبَ معه أطْرافَ حديثٍ ما، ثُمَّ يَسْتأنفَ سَيْرَه صَوْبَ السّوقْ. في أيام الصَّيْفِ الحارّة يأتي . في طريق عودته . مُتَصَبّباً عرقاً، ينوء بِحَمْلِ ما تسَوَّقه من خُضَرٍ وفاكهةٍ ولحومٍ ولوازمَ بقالةٍ تُمثّلُ خزين أسبوعٍ كاملْ. يسْتريحُ قليلاً في ظِلِّ شَجرة الكافورِ أو الجازورين المُلاصقتين للبابِ الشَّرْقيّ المُطلِّ على الطريق، وأحياناً يُسْندُ ظَهْرَه إلى شَجرة التوتِ المُقابلة للبيْت مولياً ظهرَه

للتّرْعة، مُتطلّعاً إلى نافذة مفتوحةٍ أو شُرْفةٍ عُلْويّةٍ بابُها مَفْتوحْ، وحين يلمحُ أحداً أو يَلْمَحُه أحدٌ من أهلِ البيْتِ يكون ذلك إيذاناً بِشُرْبَةِ ماءٍ ثانيةٍ يتعاطاها شاكراً مُتَمْتماً بدعواتٍ لا نتبيّنُها لخفوتِ الصَّوْتِ وغلَبَةِ الحياءْ. عَمّ غريب الطّبّاخ، لُغْزُنا المَسْتَعْصي على الحَلِّ وهاجِسُنا المؤرِّقْ. ما الّذي يَجْعلُه هكذا عازفاً عن النَّظَرِ حَتَّى إلى قراطيسنا ولُفافاتِنا المُلْقاةِ على الطّريقْ، زاهداً في التقاطها وفَضّها كما يَفْعلُ كُلُّ العابرين دون اسْتثناءْ..؟! ما الّذي يَعْصِمه هكذا عن الوقوع في شَرَكِ خِدْعتِنا الصَّغيرة وضَحكنا واسْتهزائنا ونحن نشْهد ارْتباكَه وخجله لانكشافِ حالِه أمامنا..؟! حين أعْيَتْنا الحيلةُ معه تفتَّقَ ذِهْنُ أحدِنا عن فِكْرةٍ بادَرْنا على الفَوْر إلى تَرْجَمَتِها فِعْلاً على أرْضِ الواقع. كنتُ قد عَثُرْتُ في صندوق جدّتي على محفظةٍ جِلْديّةٍ قديمة لِجَدّي. كانت حائلة اللّوْن مُتآكلة الأطرافِ لكنها بَدتْ بيْن أيدينا كَنْزاً ثَميناً. تناقَلْناها بين أيدينا وتفقّدْنا جيوبَها الدّاخليّة ونظراتُ أعيننا تتلاقَى وتفترقُ مُتوهّجةً بإلْهامٍ مُشعّ. فلَمّا كانت صبيحة يوم السّوقْ حَشَوْنا جيوبَها بالورقِ حتى انتفَخَتْ وأغلقناها ورَبَطْناها بخَيْطٍ طويلْ جَعَلْنا طَرَفَه الحُرّ بأيدينا واختبأنا خلف باب الدّارْ نرْقُبُ الطريقْ. وحين لَمَحْناه قادماً على البُعْد وضعَ أكبرُنا المَحفظة وسط الجِسْر وغطّى الخيط الممدودَ بيننا وبينها بالتّراب. لحظاتٌ احتبستْ فيها أنفاسُنا ونحنُ كامنون له خلف الباب، نتزاحمُ حول فرجة الباب مُترقّبين قدومه بمِشْيتِه الوئيدة وخطاه المُطْمئنة، حتّى صار بمُحاذاة المحفظة. لابُدّ أنه لَمَحها بطَرْفِ عَيْنه لأنه كان قَدْ تجاوزَها بخطْوتيْن أو ثلاثْ قبل أن يستديرَ ويلْتفتَ للخَلْفِ، مُتوقّفاً بُرْهة، ناظراً حواليْه وصَوْبَ بَيْتِنا في توجّسٍ، قبل أن يتقَدّمَ صَوْبَ المحفظةِ وينحني مادّاً يَديْه لالْتقاطها. قَبْلَ أن تُلامس أصابعه جِلْد المحفظةِ كُنّا قد سَحبْنا طرفَ الخيْطِ مُنفَجرين بالضَّحكِ والتَّهليلِ، يَمْلؤنا إحْساسٌ صاخبٌ بالظَّفَرِ رُبّما لَمْ نَعْهَدْه في يَوْمٍ من أيّامِ السّوق مِنْ قَبْل. أمّا هو فقد جَمُدَ في مكانه صامتاً يَرْقُبُ المحفظة المُتحرّكة صَوْب البابِ شاحبَ الوَجْه زائغَ البَصَرِ، قبل أن تَدُبّ في جسده الحياة ويمضي مواصلاً سَيْره الوئيد على

جِسْر التّرْعة. لَمْ نَرَه بعد ذلك قَطّ. انتظرْناه سوقاً بعد سوقْ، لكنّه لم يَعُدْ يَجيءْ. قيلَ لنا إنّه يَسْلُك طريقاً آخرَ عَبْرَ الحقولْ مُتجاوزاً بَيْتنا خَجَلاً أو خِزْياً. وقال آخرون إنه لزمَ بيت مخدومه لمرضٍ طويل ألمّ به. وذهبَ البَعْضُ إلى أنّ المرَضَ ثَقُلَ عليْه حتى تُوفّي ودُفنَ في عزبة مخدومه. أقاويل كثيرة لمْ نَعْلَمْ حتّى الآن قَدْرَ ما فيها من صِدْقٍ أو كذبْ. لكنّ الشّيْء الغريب حقّاً أنّ هذا المشْهد بقي يُراودُ مخايلَنا زمناً طويلاً، فنُغالِبُ هواجسنا الصَّغيرة باجترارِ الحكايةِ وافتعالِ الضَّحك. ضَحكٌ يشوبُ براءةَ الصّبا فيه كَدرٌ أشبه بكدرِ الكبارْ. والأغربُ من هذا أنَّ ولَعَنا بهذه اللُّعبة فَتُرَ كثيراً حتّى تلاشَى تماماً، فانفضَّ جَمْعُنا وصارَتْ أيّامُ السّوقِ تَمُرُّ عليْنا مَرَّ الكرامْ.

بُورْصَة القُطْن

كانوا يأتون دوماً في مواسم القطن بوجوههم البيضاء المُشرّبة بالحمرة، مُرْتَدين ستراتهم الواسعة الفضفاضة ومُعتمرين قبّعاتهم. نحن الصّغار نترقَّبُ حضورهم كل عامٍ وكأنه كرنفالٌ تزدهي به قريتنا. وكان جَدّي ـ لأمرٍ ما ـ يحتفي بمقدمهم ويولمُ لهم في كرم رغم ما يتردّدُ بيننا من أقاويل عن أنهم لفرط سفههم يُشعلون سجائرهم بأوراق النقد فئة العشر جنيهات. وأقاويل أخرى لابدّ أنها محضُ خيال أعفّ عن ذكرها الآن. كان لهم حضورٌ طاغٍ يشمل بيتنا الريفيّ كله، فتدبُّ فيه حركة النسوة ويموجُ بفورانٍ غريب. أما نحن الصغار فجلُّ هَمِّنا أن نصطفّ عند ثقب الباب نختلسُ النظر إليهم وهم يرطنون بلكنتهم الغريبة ينطقون الحاء خاءً أو هاءً ويتعثرون في الحديث أحياناً فيدارون ارتباكهم بضحكٍ مفاجئ. ويظل الكلام بين أخذٍ ورَدٍّ وشَدٍّ وجَذْبٍ بينهم وبين جدّي حتى يتفقون على سعرٍ فيخرجون محافظهم ويشرعون في عَدّ الأوراق النقدية ويضعونها بِيَدِ جدّي. وتنطلقُ دائماً ضحكة صاخبة من أحدهم وهو يربتُ على كتف جدّي:

ـ آه يا هاجّ.. دائماً تغلبني..

فيجيبه جَدِّي ضاحكاً:

ـ أنت يا خواجة.. لا أحد يغلبك.

في ذلك اليوم أسَرَّ جدّي لنا وهو يعيد عَدَّ النقود ووجهه متهلّل بالفرح: لو جاء الموسم القادم على هذه الحال سأتزوج.. فقد اشتقت للنساء بعد رحيل جدّتكم.

لكن الريح لم تأتِ بما يشتهي. جاء عامٌ قيلَ إنه عام الكسادْ. تكدّس القطن في مخازنه ولم يأتِ الخواجات. ظلّ جدّي ينتظرهم وكلّ يومٍ يمرُّ يزدادُ حزناً وشحوباً ويضيقُ صدره بمن حوله. جاءوا أخيراً فانفرجت أسارير جَدّي وطارَ بهم طيراناً. غير أنّ وجوههم كانت أشبه بالكدمة التي احتبس بها الحزن. حتى ضحكهم الصّاخب ذوى وتضاءل حتى صار ابتسامةً باهتةً مُغْتَصَبةً على طرف الشفاه. وحين مَدَّ جدي يده ليتناول نقودهم كان جسده كله يرتجفُ، وبدا صوته جافّاً وهو يودّعهم بفتورْ.

. خرابْ بيوتْ..

قال جدّي مُحدّثاً نفسه بعيون زائغة وصوتٍ مبحوح وهو يبسط الجنيهات القليلة على الطاولة.

. إنه خرابُ بيوتْ..

في هذا العام مرض جَدّي وثقُلَ عليه المرض. قبل أن يموتْ، كان قد رأى حُلْماً قَصَّه علينا. قالَ إنه قابلَ في المنامِ أخاه الذي رحلَ قبله بسنوات، وحين لقيه بادره بالسؤال: صحيحٌ ما سمعته يا حاجّ..؟ تعتزمُ الزواج..؟!

قال جدي: نعم.

أجابه بصوتٍ باتّ: لا تفْعَلْ يا حاجّ مصطفى.. أنت آتينا قريباً..!!

ونبتتْ ابتسامة شاحبة على شفَتَي جَدّي وهو يختمُ حديثه بغمغمةٍ تقطرُ مرارة: . مِنْهُم لله.. الخواجاتْ.. يُعْطونَ بِيَدٍ.. ويَحْصدون أعْمَارنا باليَدَيْن.

واكتسى وجهه بغمامة حُزنٍ كثيف وهو يبتلعُ ريقه ويُحدّقُ بعيْنَيْن خاويتَيْن في فراغٍ سحيقْ.

خَسارَةٌ لا تُعَوَّض

حين تفقد ما لَمْ يَكُنْ لكَ أصْلاً.. فهذه ليست بِخَسارَة..!! بهذا البرودْ أنْهَتْ حوارَها معي وأغلقَتْ هاتفها المحمولْ. هو ـ إذَنْ ـ فراقٌ لا رَجْعةَ فيه، مِنْ جانبها هي على الأقلّ. وحالاتُ الفراق أشبه بإجراء جراحة، تكون فيها مُخَدّراً وغائباً عن الوَعْي تقريباً وأنتَ تتلَقَّى الصَّدْمة، ثُمّ ما تلبثُ أن تفيقَ شيْئاً فشيْئاً على ألم الجُرْحِ الذي لا يُحتملْ. تَشْعرُ بأنك وحيدٌ قليل الحيلة في عالمٍ موحشٍ لا قَلْبَ له. صحيحْ أنّ الحياة ما تلبثُ أن تسْتأنفَ مسيرتَها فتخفّ حِدّةُ الألمِ ويؤول الجُرْحُ إلى نُدْبَةٍ تَخزُك بين الحين والحين بذكراها الحزينة، غير أنّ التّساؤلَ المُعَلّقَ دون جوابْ يَبْقَى مُشرعاً في وجْهِكَ بإحْساسِ هوانٍ مُضْمَرْ: لماذا..؟! في حالتنا، ما زادَ الأمْرَ تعقيداً هو سنوات الخِطْبةِ الخَمْس ـ بحُلْوها ومُرّها ـ التي أمضيناها معاً. لا تَقُلْ لي أنها لَمْ تَكُن خِطْبةً رَسْميّة وأنّ ثلاثة أرباع الوَقْت أمضَيْته في غُرْبَةٍ لأجمع نفقاتِ زواجنا المُرتَقَبْ. لا تَقُلْ لي أيْضاً أنها لم تكُنْ علاقة هوَىً مَشْبوبٍ أو شِبْه مشبوبْ، بل هي إلى الصّداقة أقْرَبْ. لا شَيْءَ في هذا كُلّه يحمل لي أيَّ عزاءٍ أو يُبَرّرُ نبرةَ صَوْتها المملوءةَ جفاءً وخشونة وهي تُنهي مُحادثتها معي، وتَختمُ معها على سنواتِ الحُلْمِ الخَمْس. الحُلْم..؟! نَعمْ.. الحُلْم. الحُلْم الذي يُهوّنُ عليْك هوانَ البُعْد والاغتراب ومَشقّة العملِ ونظراتِ أهل البلاد إليْك على أنّك أجيرٌ بثَمَنٍ بَخْسٍ وكرامةٍ مُهْدرَة. وسطَ هذه الغابة التي أنتَ فيها حيوانٌ لا إظْفرَ له ولا نابْ، يلوحُ لك ذلك الوجه ـ وَجه الحبيبة ـ كجَنّةٍ موعودة تنتظرك في آخر النفق. لا يهمُّ كَمّ الأكاذيب التي تحوكها على نفسك وعلى الآخرين لتُجَمّلَ هذا الوجْه وتُضْفي عليْه من الأوصافِ والنعوتِ ما لَيْسَ فيه. لا يَهُمّ أيضاً أنّك تُطْلقُ الكذبةَ وتُصَدّقها فتعيش ساعاتِ شَوْقٍ وحنينٍ حقيقيّة، أو

على الأقلّ يختلطُ فيها الوَهْمُ بالواقعْ. من القائلْ: حقيقتُكَ الوحيدة هي المَسْرح.. كُلّ ما يحدثُ حوْلك في الحياة الواقعية مُجرّد وَهْم..؟! لا تَقُلْ لي أنني كُنتُ الحالمَ وحْدي فلماذا أُحمّلُ الآخرين جريرة إفاقتي المُفاجئة على قُبْحِ العالَمِ من حَوْلي. فهي . هي وَحْدها . مَنْ تَرَك لي الحَبْلَ على الغاربَ لأخلد للنّوم وأغرق في عسلِ الحُلْم، وهي . وليسَ أيُّ أحدٍ آخر . مَنْ انتزعني من غَفْوةِ النّوْمِ بفظاظةٍ غير مُحْتملَة.

. وحين صَحَوْتَ من النّوْم اكْتَشَفْتَ أنّ مُؤخّرتَك عاريَة..!!

يقول صديقي وجليسي بالمَقْهَى ضاحكاً، ويُرْدفُ قوْله وهو ينفثُ دُخان النارجيلة من فَتْحتَيْ أنفه:

. لا تُؤاخذْني.. القافية حَبَكَتْ.. هيه..؟! أكْمِلْ..

لا أحدَ . حتّى أقرب الأقربين إليْك . يُحسُّ جُرْحكْ أو يُشاركَ نَبْضةَ ألَمٍ واحدة، فوَفِّرْ حكاويك وتوقَّفْ عن اسْتدرارِ مشاعر الآخرين. لكنْ في الحَكْي والفَضْفضةِ راحةٌ نلتمسُها أوقات الحُزن حتّى لوْ كَفَّ الآخرون عن الإصغاء إليْنا. ولماذا تلومُ الآخرين ولا تلومَنَّ نفسك..؟! ألسْتَ أنتَ القائل يوماً: لا تَكْشَفْ عَوْرتَكَ للناس وتغضبْ حين يستهزئون بك..؟! لماذا يبدو فراقُ امرأةٍ هكذا فاجعاً وغير مُحْتَملٍ حتَّى ولو كُنتَ أنتَ مَن اختار الفراقْ..؟! لكنّ ما حدث لم يكن اختيارك، وهذا ما يجعلُ ألم الفراقِ مُضاعفاً. لَمْ تَتْرُكْ لكَ أيَّ مجالٍ للاختيارْ. وحين غَمْغَمْتَ بصوْتٍ لايكاد يبين عَبْر الهاتف المحمول: هكذا..؟! ينتهي ما بيننا في لَحْظة..؟! جاءَ رَدُّها حاسماً وباتراً كأنه حوارٌ مُسَجّلٌ على شريطْ: إكْرامُ المَيّت دَفْنُه..!! ما الذي يجعلُ قَلْبَ المرأة . أية امْرأة . الذي يتفجّرُ منه ماءُ العواطف والأحاسيس والمشاعر، ويُعشبُ فيه اخضرارُ الأمومة، صَلْداً وأملسَ هكذا مثل حجر الصَّوّانْ..؟! أهي الغُرْبة..؟! خمسُ سنواتٍ تُسافرُ إحْدَى عشرَ شَهْراً وتعودُ شَهْراً واحداً لا تَظْفرُ فيه بأكثر من بضعةِ لقاءاتٍ معها بعددِ أصابعِ

اليدِ الواحدة. من يُحاول كلاكما تجسيد دور العاشق المُتَيَّمِ بمعشوقه والمُتحرّق شَوْقاً لِلُقياه. وإحْدى عشر شَهْراً من البُعْد والاغتراب والانتظارِ والفراغِ المُرَوّع والرّغباتِ غير المُشبَعةِ والأحلامِ غير المُتحقّقة أبداً. لا بَأسَ بِعامٍ آخر.. وبَعْدَها نسْتريحُ ما بقي من العُمْر. فُرصة السَّفَرِ إلى بلاد النّفْط لا تتهيّأ إلاّ مَرَّةً في العُمْر.. دَعينا لا نُبَدّدُ هذه النّعْمَة التي اختَصّنا بها الله دون ملايين ينامون ويَصْحَوْن على حُلْم السَّفَرْ. يبدأ الأمرُ بسَنَةٍ واحدة نُمضيها بالطّولِ أو العَرْض، نُدَبّرُ فيها مَبْلغاً يُعيننا على شراء شَقّةِ الزوجيّة وتجهيزها ولابأس بَحفلةِ زفافٍ مُتواضعة في إحدى قاعات الأعراس الرخيصة. سنةٌ واحدة ما تلبث أن تتكرّرَ بحذافيرها وتستطيلَ لتصيرَ سنواتٍ طويلة وأحياناً عُمراً بأكمله. تستحيلُ الكماليّات والهوامش ضروراتٍ لا غِنى عنها، والشَّقّة المُتواضعة مَسْكناً لائقاً بنا وبأولادنا من بَعْدنا، والفرَحُ الاقتصاديّ عُرْساً يتحاكى به كُلُّ الأقارب والمعارف والأصدقاءْ. ولأننا نجيدُ تجميل الأشياء وتبريرَ ما لا يجوز تبريره، نجنحُ دوْماً إلى إغماض أعيننا عن الحقيقة البسيطة الواضحة وضوحَ الشَّمْس في أذهاننا وضَمائرنا، فنُنْكرُ أنَّ الغُربةَ صارَتْ إدْماناً لا يُمكن التعافي منه، والرّغبات غير المُشبعة تنطمرُ تحت جلودنا كَرْهاً أو تبحثُ لها عن مساربَ أخرى للتّحقّقِ؛ مسارب مُؤقّتة لحين مجيء الفَرَجْ، ما تلبثُ هي الأخرى أن تُصبحَ طريقةً للعيش لا مناص منها هي والإدْمانُ سَواءٌ بسواء. كلانا أدْمَنَ ما يُشْبعُ حاجته: تعاطَيْتُ أنا الغُرْبة حتى صارَتْ مُخدّراً بالدّمِ وقاعدة للعيْش غَيْرُها هو الاسْتثناءْ، وأدْمَنَتْ هي مُسَكّنات البُعْد وعقاقير الانتظار الطّويل، والتي هي وَجْهٌ مألوفٌ أو يبدو مألوفاً يَبْرزُ لكَ من عَتْمة اليأس وتيه الوحدة ووحْشة التّرَقُّبِ وخسارة العُمرِ الذي تتساقطُ براعمه عاماً بَعْد عامْ. من هذه البئر الجافّة يَظْهَرُ وجه هذا الذّئب الجميلْ، يبدأ طيْفاً فَهاجساً يُراودُك عن نَفْسه فَشَبَحاً يُطاردُكَ في نوْمكَ وصَحْوِك، يَسْلُبُك آخر معاقل المُقاومةِ ومواقع التَّمَرُّد في داخلك، لا يَقْنَعُ بغَيْرِ اسْتسلامك . غير المشروط . روحاً وجَسَداً. ولأنّنا . مَرَّةً أخرى . أساتذةٌ في تبرير ما يَعْجزُ عَقْلُنا عن اسْتيعابه

وتَسْويغه، فلابُدّ أنَّ هذا السؤال تردّدَ على مُخَيّلتها المَرّةَ تِلْوَ المَرّة: ألا يُمكن للمرأة أن تَعْشِقَ رَجُلَيْنِ في آنٍ واحد..؟! ألا يُمكن أن يتعايش الرَّجُلان ـ أحدهما سرابٌ لا تُدركه إلاّ شهراً كُلّ عامْ، وإذا أدركَتْه فهو مَحْضُ سَحابٍ عابرٍ لا يَسْتحيلُ ماءً أبداً، والآخر واقعٌ حاضرٌ ومُتحقّقٌ في خلايا جسدها وخلجات أنفاسها ـ في امتلاكها روحاً وجَسَداً..؟! هي ـ في الحقيقة ـ أسئلةٌ أشبه بتحصيل الحاصلْ، لا تنتظرُ جواباً ولا تُلحُّ عليْه، لأنّها هواجسُ ما قَبْلَ السقوط الوشيكْ والانزلاقِ الذي لا مَفَرّ منه حين اندَفَعْنا من قِمّةِ المُنْحدرِ باختيارِنا، وأسْلَمْنا أنفسنا لجاذبيّة الأرْضِ تهوي بنا نحو القاعْ. من القائلْ: لا شَيْء يُرَسِّخُ ذكْرياتنا في الذاكرة مثل مُحاولة نِسْيانِها..؟! لكنّك لمْ تُحاولْ قَطّ أن تنسى ما كان بينك وبينها. أنتَ فقط تجتهدُ لتفسير ما حدث والبحث عن سِرِّ هذه الفظاظة وهذا الجفاءْ. ولا بأسَ أيضاً بمعرفة هذا الوَغْد الذي اختطَفَ من بَيْن يَدَيْك ما كُنتَ تَعُدُّه مِلْكاً خالصاً لك، لتَكْتَشِفَ ـ في لحْظةٍ فاجعة ـ أنه لَمْ يكُنْ لكَ منذ البداية..!!. أنتَ تُحاولُ ـ أيضاً ـ إحصاء خسائرك المُحتملة جرّاء صاعقة الفراقْ. هي ـ دون رَيْب ـ خسائر فادحة بمقياسِ المال الذي ضاعَ هباءً والأحلام التي عصفَتْ بها الريح وسنوات العُمر ـ أزْهَى سنوات العُمر ـ التي الْتَهَمَتْها مَحْرقةُ الغُرْبة والتّعلُّقُ البائس بما اكْتشَفْتَ أنه لم يكُنْ مَقْدوراً لكَ من البداية. أوْقاتُ ما بَعْد الفراقْ لها برودة المَوْت وسكينته ونورانيّته التي تُضيءُ ما بداخلك من ظُلْمةٍ كثيفة، تُسْلمُكَ لحالةٍ من التأمّلِ الذّاهل عمّا حَوْلك، فتَرَى ما حجبَتْه عنكَ سحاباتُ الأوهامِ وسفاسف الحياةِ وأكاذيب الذّاتِ المُتضَخّمة. هي ليْستْ وحْدَها التي غَيَّرها البُعْد والفراغُ المُروّعُ والغياب الطّويلْ. أنتَ أيضاً تَغَيَّرْتَ كثيراً. أخذَتْ منكَ الغُرْبةُ وأعْطَتْكَ ما لَمْ يكُن في الحُسْبانْ. لمْ تعُدْ ذاك الفتى المَمْلوء طموحاً وحيويّة وأحلاماً وقلقاً ورَغْبَةً في تغيير العالَمْ. صِرْتَ ـ نَوْعاً ما ـ أشبه بذكَرِ بَطٍّ مُدَجّنٍ ومُسَمّنْ. لطول ما تَعَلَّمْتَ من الصَّبْر على المكاره والتّأقْلُمِ مع الظروف وابتلاعِ الإهاناتِ والإذْعانِ وغَضّ البَصَرِ عن نظْرَةِ اسْتصغارٍ هنا أو هناك، في بَلَدٍ غريبٍ لَمْ تقصِدْه سائحاً بل باحثاً عن لُقْمةِ عيْشٍ لا تظْفرُ بها

في وطنِك. الآن.. على حافّةِ العالَمِ . عالمكَ . المُنهار من حَوْلِك، تتَبَدّى لكَ الأشياء في جلائها أكثرَ أُلْفَةً، ومِنْ ثَمَّ أقَلَّ إيلاماً. والأغربُ من هذا أنّكَ . في جِلْسَتِك هذه على حافّةِ هذا الفراغِ السَّحيقْ الذي تُوشكُ أقَلُّ دَفْعَةٍ أو هَبّة ريحٍ أن تقذف بك في مَهْمهه المجهول، يبدو داخلك أكثرَ سَكينةً وأقَلَّ إحْساساً بهوانِ الهَجْرِ أو فداحة الخسارة. أكثر من ذلك، تبدو كبَطَلِ التّراجيديا الذي قادتْه أخطاؤه ونقائصه إلى مصيره المحتومْ. لا أثَرَ داخلكَ لكراهيةٍ أو ضغينةٍ أو حِنْقٍ أو حتّى غضَبٍ تجاه أطراف المأساة التي ألمّتْ بك، فتاتكَ التي فَقَدْتَها للتَّوّ وذاك الغامض المجهول الذي انقضَّ عليْها كَحدْأةٍ واختطفها من بين يَدَيْك. لا رَغْبَةَ لدَيْكَ الآنْ في إماطةِ اللّثامِ عن وجْهه، فليسَ ثَمَّة فارقٌ أن يكونَ زَيْداً أو عبيْداً، لكَ أن تتخيّلَه في ألفِ وجهٍ وألْف هيْئة حتى تُشْبعَ فضولكَ وتُنْعشَ جذوة الخيال لديْك، لكنَّ هذا لنْ يُغيّرَ من الأمْر شَيْئاً. الشَّيْء الوحيد المُؤكّد أنّك لن تَبْقَى هكذا طويلاً، سوف تُفَكّرُ جَدّيّاً فيما يلوحُ الآنَ خاطراً مُبْهَماً في ذِهْنك، وهو في الحقيقة خيارٌ لا مناص منه. حينئذٍ سوف يَقِرُّ قرارك على قَفْزَةٍ أخرى نحو المَجْهولْ؛ سَنة جديدة من سنوات الغُرْبة قد تَمتَدُّ لتُصْبحَ دَهْراً، أو تقْصرُ وتطولُ حسب الظروفِ والأحوالْ، لكنّها بالتأكيد سوف تمنحكَ وقْتاً لالتئام الجُرْح، ورُبّما تحْملُ لكَ قسْمةً أو نصيباً ما ينتظركَ هُناكْ. مَنْ يَدْري..؟!.

بَيْتٌ آيلٌ للسّقوط

يتحدّثُ عن نَفسه طيلة الوَقْت. لا ضَيْرَ في ذلك. فالآخر . الذي يُجيد الإصغاءَ لطولِ ما تمرّسَ به طيلة حياته الوظيفية الخالية تماماً من أيّ إنجازٍ يَصْلحُ مادَّةً للحديث . لا يُمانعُ في البقاءِ هكذا طيلة اللّيْل، جالساً في مقعد المُسْتمع الوثيرْ، مادامتْ حاجاتُه . وما يربو على احتياجاته العاديّة بكثير . مُؤمّنةً بشِكْلٍ يجعلُ التّمِلْمل أو نفادَ الصَّبْر نوعاً من البَطَرِ بالنّعْمة. ما الذي يُقلقه . إذَنْ . ويجعلُه راغباً الآن . وبكُلّ ما يتحلّى به من كياسة . بالاسْتئذان في الانصرافْ، تاركاً مُضيفه يَصُبُّ كأسيْهما على مهلْ، واثقاً كُلّ الوثوقْ بأنّه سيعود لإكمال ما انقطع من حديثه، موقناً غاية اليقين بأنّه سيعود ليجدَ ضيْفه كما تركه تماماً، بأرْيَحيّته وبساطته وسعةَ صَدْرِه، مُتأهّباً للإنْصاتِ دون مللٍ أو شرودْ، مُبدياً ما يلزمُ من إشارات التّعجُّبِ وعلاماتِ الاسْتفهام المُتناغمة تماماً مع إيقاعِ الحديث ومُجرياتِ الأحداثِ كأنّها موسيقى تصويريّة تكتملُ بها لذّةُ الكلامْ. بوغِتَ الطبيبُ . الذي لم يُمارس الطّبَّ قَدْرَ ممارسته للسياسة والأمور العامّة . بِضَيْفِه واقفاً مُنتصباً ومُتأهّباً للانصرافْ. لا يتحلّى بشجاعة المُصارحة، كما أنه لم يكن على علْمٍ واضحٍ قاطع بسبب ضيقه المُفاجئ ورغبته في الخروجْ، تاركاً مُحدّثه في مُنتصفِ الطّريقْ ورُبّما في بدايته، فحديثُ الطبيب حين يبدأ لا يعرفُ أحدٌ . حتّى هو . متى ينتهي. فهو يأخذُك من حكايةٍ إلى حكاية، وينْعطفُ بكَ من حارةٍ إلى زُقاقْ، حتّى تتشابك أمامك الطّرُق وتختلطَ المداخلُ والمخارجُ وتُصْبحَ غايةُ أُمنياتِك أن تَخْرُجَ من هذه المتاهة سالماً مُعافى.

. ماذا..؟!

نطق بها الطّبيبُ في دهشٍ واسْتغرابٍ وخَيْبَةِ أملٍ في ضَيْفِه الذي اسْتعانَ بأقربِ حجّةٍ جاهزة يتعلّلُ بها في الانصرافْ:

. أحْسَسْتُ بتلبُّكٍ مُفاجئ بالمعدة..

. وهلْ هناك أفضلُ من طبيبٍ مثلي ليُعالجك من تلبُّكِكَ المُفاجئ..؟!

قالَ الطبيب الذي كان مايزالُ يَحملُ في يَديه الكأسين نِصْف المملوءتيْن قاصداً المنضدة. ثُمّ بلهْجةٍ آمرة:

. اجْلِسْ..

وأضافَ وهو يضعُ الكأسيْن في موضعيهما المُعتاديْن على المنضدة:

. اجْلسْ.. وحَدِّثْني عما تَشْعرُ به بالضَّبْط..

انْصاعَ صاغراً غيرَ راغبٍ في تأزيمِ الموقف بينهما، وانصرفَ تفكيره إلى كيفيّة التّهرُّبِ من حديثِ المرَضِ المُفاجئ، حتى لا يُكْرَه على تعاطي دواءٍ لا ضرورة له.

. إنّه توعُّكٌ بسيطٌ على أية حالْ..

وبإغراءٍ يُدْرك بالخبرة والمِراس سِحْرَ مَفْعولِه:

. لا تَشْغِلْ بالكْ بي.. إنه أمرٌ طارئ يأتي ويروحْ.. هيه.. أكْملْ ما انقطع من حديثِك فأنا في غاية الشَّغف لسماعِ بقية الحكاية..

قال الطبيبُ وهو يرجع بظهره للخلف مُستريحاً في جلسته، مُمسكاً بكأسه بين يَدَيْه:

. أينَ كُنّا قد تَوَقَّفْنا..؟!

كان سؤالاً مُباغتاً ومُحْرجاً، فهو . وأغلبُ الظّنِ بقيّة جمهوره القليل الذي بقي مواظباً على حضور جلسات الاستماعِ هذه . لا يَهْتمُّ كثيراً بفحوى الحديث ولا مضمونه، خاصة حين يتشعّبُ وتتعدّدُ مساربه. وجدها الضَّيْفُ فُرصةً ذهبيّة لإزالةِ أيّ شَكٍّ في ذِهْنِ مُحدّثه عن ولائه المُطْلقِ واسْتمتاعه بالحديثْ:

. لماذا لا نبدأ الحكاية من أوّلِها.. أنا الآن على خيْرِ ما يُرامْ..!!

ورجعَ هو الآخر بظهره للوراءِ غائصاً بكُلّيَّته في فراغِ المقعد، مُمسكاً بكأسِه كأنه قَشّة الغريقِ الذي جرفه التّيّارُ بعيداً عن شاطئ الأمانْ.

2

طالت السَّهرة، وعَبَّ صاحبُنا ما يقربُ من نِصْفِ الزُّجاجة التي فُتحتْ، والتهمَ من الأطعمة والمَزّاتْ ما لا يتفقُ أبداً مع أيّ توعُّكٍ في المعدة، ومع هذا بَقيَ السّؤالُ مُعلّقاً بينهما طيلة الوقت. ما الذي يُضْجره هذه اللّيلة بالذّات في هذه الجلسة بالذّاتْ التي لا تختلفُ عن مئاتِ الجِلْساتِ قَبْلَها..؟! ما الذي يُزْعجه تحديداً في حديثِ هذا المُضيفِ السَّخيّ عن نفسه . هذه المَرَّة . هو الذي اعْتادَ هذا الحديث كما يَعتادُ الطّفْلُ ثَدْيَ أُمّه..؟! أو بصورةٍ أكثرَ فجاجةً وأقْرَبَ إلى واقع الحال . حاله المُزْري كمُسْتمعٍ وحيدٍ مُسَخَّرٍ فقط للإصغاءْ، ومُكَرّسٍ كُلّ حواسِّه لمُتابعة حديثٍ يُثيرُ نفوره إلى هذا الحَدّ . كما تَعْتادُ بنت الهَوَى خَلْعَ ملابسها والتّعرّي في المضاجع الغريبة. الفارق الوحيد أنه يتعرّى في مَضْجعٍ واحد، ويُسْلمُ نَفْسَه لزبونٍ واحدٍ يُمارسُ معه رذيلة التحدُّثِ عن نَفْسِه طيلة الوَقْت، يُجرّده من أبسط حقوقه في مشاركته

الحوار، مُشاركةَ النِّدِّ للنِّدّ، لا اسْتقبالَ القُطْبِ السّالبِ المَفعولِ به دونَما توقّفْ، دونما رَحْمةٍ أو هوادةٍ أو حتّى إمهالٍ لالتقاطِ الأنفاسْ. طافتْ بمُخيّلته صورة مُلاكمٍ يَتلقّى الضّرباتِ من غريمه دون أن يُحرّك ساكناً، ثُمّ مالبثت الصورة أن اسْتدْعتْ من الذاكرة صورةً أخرى أكثرَ فُحْشاً، مَشْهداً بالأحْرَى وقَرَ في مُخيّلته منذ مَطْلع الصّبا لرجُلٍ ألبسوه قميصَ نوْمٍ نسائيّ أحمر اللّون وزيّنوا وجهه بالأصباغِ وكحّلوا عَيْنيْه وعصبوا رأسه بشبْقةٍ نسائيّة، ووضعوه موثوقَ الجسد واليدين على مقدّم سيارةٍ طافت به شوارعَ الإسكندرية وسطَ زغاريد النسوةِ وتهليل الرجال المتحلقين به في الموكب. كانَ الرّجلُ ـ على ما يبدو ـ مُخَدّراً، يَنظرُ حواليه بانكسارٍ وشبحُ ابتسامةٍ خاويةٍ تماماً من أيّ معنى ماثلٌ على شَفتيه. لا يدري تحديداً ماذا كانت فِعْلةُ هذا الرجل الذي أُخذ بجريرتها ومُثّلَ برجولته على هذا النّحْو الفاضِحْ. لكنّ اسْتدعاءَ الصّورة أصابه بوَخْزٍ فتمَلْملَ في جِلْسته.

ـ مالَكْ..؟!

ثُمَّ بصَوْتٍ أكثرَ نعومةً وأقلّ فضولاً:

ـ ما يزالُ اضطّرابُ المعدة يُزعجك..؟!

ثُمّ وهو يهمُّ بالنهوض حاملاً الزُّجاجةَ الفارغةَ في يده:

ـ عندي لكَ دواءٌ...

اعْتدلَ على الفوْر في جلسته وعاجله بالرّدّ:

ـ لا.. معدتي على خيْرِ ما يُرامْ..

وحين اتّضح له أنه نهضَ فقط ليأتي بزجاجةٍ أخرى ولاخوفَ من إتْيانه بأيِّ دواءْ، نهضَ هو الآخر واقفاً:

. فقطْ.. اسْمَحْ لي باسْتخدام التّواليتْ..

. وهَلْ أنتَ بحاجةٍ لاسْتئذانْ..؟ البَيْت بيْتك..

ثُمَّ وهو يلتفتُ وراءه نِصْفَ الْتفاتة:

. تَفَضّلْ..

كان واقفاً مُسْتغرقاً بكُلِّيَّته في إعْدادِ كؤوس الزجاجة الجديدة ومُلحقاتها من ثَلْجٍ ومزّة. حين انفردَ صاحبُنا بنَفْسه في الحمّامْ طالَعَ صورته في المرآةِ فانقبضَتْ نفسه أكثرَ. لم يَرَ هيئته أكثرَ رثاثةً ممّا هي عليْه الآن. وبدا وجهه ناطقاً بالبؤسِ والهِرَمْ. تحرّرَ من بنطاله وأنزلَ سِرْوالَه الدّاخليّ بتؤدة وجلسَ على القاعدة البلاستيكية الفاخرة، مُؤمّلاً في قضاءِ حاجته بيُسْرٍ وسلاسَة. وعلامَ الاسْتعجالْ..؟! أمامه وَقْتٌ كافٍ لينفردَ بِنَفْسِه ويُفكّر برويّةٍ ويتأمّلَ ويعثر على إجابةٍ للسؤال . اللُّغْز: ما الّذي يُضايقه هذه اللّيلة بالذّاتْ..؟! قالَ له "البَيْت بَيْتَكْ". لا.. هو يَعْلمُ يقيناً أنّ البَيْتَ ليسَ بَيْتَه. وأنَّ بَيْتَه . لو تَسَنَّى له يَوْماً أن يراه . بنايةٌ قديمةٌ آيلةٌ للسّقوطْ في حارةٍ نَكِرَة مُتفرّعة من شارعٍ غاصّ بالبشرِ والعرباتِ والدّوابّ، بنايةٌ يستقبلُكَ طَفْحُ المجاري في مَدْخَلِها، ونصفُ سلالم درجها مُتآكلة ومبتورة، عليْكَ أن تُمسكَ بالدّرابزين وأنت صاعدٌ أو نازلْ، على مدى طوابق أربعة، تُسْلمُك إلى شقّةٍ مُكتظّةٍ بالبشرِ والكراكيبِ والأثاثِ البالي، تَسْتقبلُك عند بابِها زوْجةٌ غاضبةٌ ومُتنمّرةٌ وضائقةٌ بالعيشة ومَنْ يعيشونها، ورتْلُ أطفالٍ حُفاةٍ نِصْف عُراة ما أن يطرقَ البابَ طارقٌ حَتّى يخفّوا إليْه، يُلقونَ ما بأيديهم ويَصْطفون ليكونوا في شرفِ استقبالِه. بيتي ليسَ بيْتَك يا دكتورْ. هذا القَصْر الذي

تسْكنه والنّعيم الذي تَرْفلُ فيه وَحْدكَ . فأنتَ لمْ ترْتكبْ مثلي خطيئة الزواجْ . هو أصْلاً مالٌ مَسْروقٌ حصلَ عليه أبوكَ . بتُرابِ الفلوسْ . بالنَّصْبِ والاحتيالِ والتّزلُّفِ لأصحابِ السُّلْطة. هذا القصر أعرفُ جيّداً أصْلُه وفَصْلُه. وأبوك أعرفه حَقّ المعرفة. كان مُهرّجاً، بَهْلواناً، يعرفُ كيفَ يلعبُ بالبيْضةِ والحَجرْ، ومِنْ أيْن تُؤكَلُ الكتف. ماذا لو فاجأتُكَ بهذا القوْل الصّاعقْ: أبوكَ كانَ لِصّاً..!! اغْتسلَ وجفّفَ يديْه ووجهه بالفوطة النظيفة. اسْتقْبَلَه مُضيفه . الذي كان قد جلسَ ووضع قنينة الشرابِ المفتوحة على المائدة وصَبَّ منها في الكأسين وتأهّبَ لاسْتئنافِ الحديثْ . بصَوْتٍ مَرِحْ:

. شُفيتُمْ..

أبوك لِصّ..!! للعبارةِ إيقاعٌ خاصّ يتردّدُ في فراغِ رأسه المُنتشية بالشّرابْ. بماذا سيجيبْ..؟! سوف يَرْتَجُّ عليْه القوْل ويتلجلجُ في الكلام. ورُبّما يبتسمُ بمرحه المعهودْ: وهل زَعَمْتُ غيْر ذلك..؟! هلْ حَدّثْتُك عنه يَوْماً كبطلٍ من أبطالِ التّاريخْ..؟! وقد يستشيطُ غضباً فيُريك وجهه الآخرَ الذي لمْ تَرَه: أبي كانَ لِصّاً.. لكنّك لم تُمانعْ في الاعتياشِ على فتاتِ مائدته المَسْروقة...!!

اسْتراحَ في مقعده، وتناولَ كأسه وهو يتأمّلُ وجه مُضيفه النّاطق بالارتياحِ والرّغدِ والسّعادة.

. هل حَدّثْتُكَ يوْماً.. عنْ فيرانوثْ..؟!

. فيرانوثْ..؟!!

. نعم.. هذا اسْمُ زهْرة.. باللّغة التايلنديّة.. لكنّ حاملة الاسْم فتاةٌ رائعة الجمالْ.. الْتقَيْتُها في مَلْهى من ملاهي بانكوكْ..

ومضى في حكايتِه وهو يَرْشُفُ من كأسه باسْتمتاعْ، ووجه ضَيْفه . الذي يُمسكُ هو الآخر بكأسه عائداً بظَهْره إلى الوراء . يبدو له كطيْفٍ غائمِ الملامح.

طَقْسٌ سَيِّءْ

أربعة أيّامٍ من الطّقْس السَّيِّء. حسنٌ سنقضيها معاً. لَنْ نَبْرَحَ البَيْت. وماذا عندنا لِنَقْلَقَ بشأنه..؟! لا شُغْلة ولا مَشْغَلَة.. ولا عَيِّلْ ولا تَيِّلْ..

ثُمّ ينتبه فَجْأة. يَخْشَى أن يكون لِسانُه قد انْزلَقَ إلى ما يَجْرَحُ مشاعر زوجته المجروحة أصْلاً بِسَبَبٍ ودونَما سَبَبْ.

. أكثر ما نَمْلُكه هو الوَقْت..

تُعقّبُ زوجته غير عابئةٍ أصْلاً أو غَيْرَ مُنتبهةٍ رُبَّما لحديثه عن العِيالْ.

. أكثر ما نَمْلكه هو الوَقْت..!!

تُكرّرُ عبارتها بنفسِ الإيقاع الذي يَرْثي به مالك بن الرَّيْب نَفْسَه.

تُناوله فَرْدةَ الجَوْرَبِ التي انْتهتْ للتَّوِّ من رَتْقها.

. الفَرْدة الأخرى سليمة..؟!

عَبَثاً يَبْحثُ . وهو يهمُّ بالانتصابِ واقفاً . عن إجابة تكفيه مؤونة النهوض والتفتيش عن الفَرْدة الثانية وفَحْصِها لتحديد ما إذا كانت بحاجةٍ إلى ترميم. يَغْلبه كَسلُه فيُعاود الجلوسْ.

. لا أعتقد..

. أو تَعْتقدْ.. أنا عَيْناي تَعِبَتا من كثرة التَّمقيقْ..!!

هو أيضاً كَلَّتْ عَيْناه من كثرةِ التَّمقيقِ في الصَّحيفةِ اليوميّة التي يُفلّيها كلمةً كلمةً وحَرْفاً حَرْفاً لينساها بعد ذلك. كأنما يُفرغُ ما بها في ذاكرةٍ مَثقوبَة.

أرْبَعةُ أيّامٍ من الطَّقْسِ السَّيِّء. الأرصاد الجويّة لم تَعُدْ نبوءاتُها تُثير الضَّحكَ مثلما كان الحالُ عليه قبل سنواتْ. الأقمار الصناعيّة تلتقطُ الآن كُلّ شاردةٍ وواردة في الكون وتَبْعثُ بإشاراتِها إلى كُلّ سُكّانِ المعمورة. تبدو له أفكاره سَخيفةً وخيالُه فقيراً فُينَحّي صَحيفتَه جانباً ويَنْهض مُتَّجهاً صَوبَ النافذة.

. أغْلِق النّافذة.. هذا الهواء البارِدْ سوفَ يَقْتُلُنا..

يَكْتفي بالنّظرِ عَبْرَ الزُّجاجْ. يَلْفتُ نظرَه التُّراب المُتراكم فوق سَيّارته اللاّدا البَيْضاءْ. حسنٌ. سوف يَتَكَفّلُ المطر بغسيلِها كما هي العادة. جميعُ مشاكلنا يَتَكَفَّلُ بها الزَّمنْ. قال هذا مرَّةً . علي سبيل الفُكاهة . فكان قَوْلُه فاتحةَ وابِلٍ من التَّقْريعِ لكسلِه ولامُبالاته وفتورِ هِمّته وتَبَلُّدِ إحْساسِه، ثُمّ ما لبث الأمرُ أن تحوّلَ إلى خناقةٍ فخصامٍ طال أيّاماً. هكذا هي منذُ انقطَعَت عنها الدّورةُ الشَّهْريَّة. صارتْ بَرِمَةً بكُلِّ شَيْءٍ نافذة الصَّبْرِ عاليةَ الصَّوْتِ حتّى في تلك النقاشاتِ اليوميّة التي لا تستوجبُ زعيقاً أو صياحاً. تَبّاً لهذه الدَّوْرة..!! وماذا كانت تنتظر..؟! هي في الخمسين الآن. وهو تَجاوز عقده السادس بعامين اثْنيْن. هل كانت ما تزالُ مؤمِّلَةً في مُعجزةٍ إلهيّة تَنْفخُ فيها من روحها فيُرْزقان بالولدِ الذي انتظراه طوال ثلاثين عاماً من العِشْرة..؟! تذَكَّرَ سنواتِ الزواج الباكرة والأمل المُتجدّد كُلَّ دورةِ حَيْضٍ في انقطاعِ الطَّمثْ علامةَ الحَمْل. أملٌ سُرْعان ما يَخْبو مع أوّلِ قَطْرةِ دمٍ تجيء. فينتظرانِ الأيّامَ المُهمّة للجماع التي مالبثت هي الأخرى أن أصْبحتْ . مع تواتُرِ الدّوْراتِ . واجباً ثقيلاً وعبئاً لا سبيل

للتَّخفُّفِ منه. واجبٌ جعلَه يَزْهَدُ في رَغْبَتِه بها مُنْشَغلاً عنها بعلاقاتٍ عابرة، أنعشَتْ روحه وجَدَّدتْ حيويَّته فاحْتمل واجباتِه الزوجيّةَ على مَضَضْ.

. ما الشَّيْء المُهمّ الذي تنظرُ إليه هكذا بشَغَفٍ في الشارع..؟!

تَقْطعُ عليْه سِلْسلة ذكرياته فينتبه غيرَ آسفْ ويَتْرُك مكانه وراء زُجاج النافذة مُتِّجها إلى زوجته. هي ذكرياتٌ سَيِّئةٌ على أيَّةِ حالْ. ثَمّة قَطراتُ مطرٍ خفيف تتساقط مع هبوبِ رياحٍ عاصفة.

. كُنْتُ أتذكَّرُ سنواتِ زواجنا الأولى..

تُفاجئه ضَحكةٌ انْبَثَقَتْ فَجْأة كما تنبجسُ عَيْنُ ماءٍ في صَحْراءْ.

. ويا لَها من ذكْرياتْ..!!

يتأمّلُ وَجْهَها الطِّفْليَّ الذي أضاءته الضَّحكةُ وهو يتمَدّدُ إلى جوارها على السَّريرْ. تسْتبدُّ به رغْبَةٌ مُفاجئة في الالتصاقِ بجَسَدها الدّافئ آخذاً خَدَّيْها بين راحتيه، مارّاً بشفتَيْه على جبينها فَعَيْنَيْها فَخَدَّيْها، مُسْتقرّاً عند الفَمِ المُنفرج قليلاً في دهشٍ وانجذابْ. أيُّ طفولةٍ في هذا الوَجْه المُسْتسْلم لنزوته المُفاجئة، وأيُّ نَضارةٍ وحُمرةٍ ورْديَّةٍ في هاتين الوَجْنتيْن..؟! أيُّ.. وأيُّ.. لا وَقْتَ لِفَلْسفةِ الأمورِ فليْسَ كُلُّ شَيْءٍ في الدُّنيا قابلاً للبَحْثِ والتَّمْحيص، كما أنّه ليْسَ وَقْتَ الأسئلة، فللدَّمِ الحارِّ المُتدفّقِ بأعضائهما حُرْمَةٌ، ولجسدَيْهما اللَّذيْن تَجرّدا تماماً من ثيابهما رَغْبَةٌ مُلحّةٌ في الالْتحامِ والذّوبانِ ثُمَّ التّلاشي إلى أن تحين لحظة الإفاقة التي ينتبهان فيها إلى هيئتِهما المُضْحكة، ورُبَّما يَضْحكانِ حين تذهبُ السّكرةُ وتأتي الفِكرة ويتعيّنُ عليهما أن يغْتسلا الآن ويُبدِّلا ثيابهما، وهي تَهْمسُ له بدِلٍّ أُنْثَويٍّ نسيه لطولِ ما تقادمَ عليْه العَهْد: مالّذي جعلك تنتفض هذه الانتفاضة..؟!

ورُبّما يُشاركها اندهاشَها ويُجيبُ بأوّلِ ما يَخْطرُ على بالِه: لعلّه الطّقْسُ السَّيِّءُ في الخارجْ..

وقد يُغريها قولُه بمُتابعةِ الحديثِ الضّاحكِ: وهل فينا نَفَسٌ لنَبْقَى على هذا الحالْ أربعةَ أيّامٍ مُتواصلة..؟!

يَوْمٌ من ذاتِ الأيّامْ

(1)

يوْمٌ سَيِّئ. ذلك النوعُ من الأيامْ الذي لا تُجدي معه عمليّةُ تجميلٍ أو ترميمْ، فهي أشبه بمحاولة محْو خطأٍ كتابيٍّ بإصْبعِك، تزيد الورقة قُبْحاً واتّساخاً. لطول ما تمرّسَ به ـ ذلك النوع من الأيام ـ تعلّمَ أن يدعَ كُلّ شَيْءٍ على حاله، ويتجرّع مرارة أحداثه بصَبْرٍ وجلدٍ وأناة، تماماً كمصارع الحلبة الذي هو موقنٌ من هزيمته، يتلقّى ضربات خصمه دون مقاومة، دون حتّى رغبة في المقاومة، واثقاً من حقيقةٍ لا مراء فيها: أنّ هذا كلّه ـ عاجلاً أم آجلاً ـ سينتهي، ربما بسقوطه مغْشيّاً عليه، ورُبّما بإحساس خصمه بأنه لا جدوى من مصارعة جُثّة، ورُبّما بتدخّل الحكم مُنهياً المباراة لانعدام التكافؤ. منْ غثاثةٍ إلى غثاثة، وقرفٍ إلى قرفْ، أنهى مشاوير يومه السّيّئ ووصل إلى محطّته الأخيرة: مبنى التأمين الصّحّي. اليوْم هو الموعد الشّهري لصرف أدوية الصّدْر ـ حساسية الصّدْر ـ فهو لا يستطيع قضاء يوْمٍ واحد دون تلك البخّاخة السّحْريّة التي تفتحُ شُعيّباتِ رئته للهواءْ، والشّراب الطّارد للبلْغَمْ، وقُرْص الثيوفللين الذي يقسمه نصْفيْن: نصْفٌ بعد الإفطارْ، ونِصْفٌ آخر بعد العشاءْ. قبل أن يتخذ مجلسه وسط جمع المُنتظرين، نظرَ في ساعته فوجدها تُشيرُ إلى الواحدة إلاّ سَبْع دقائقْ. حسناً ـ قال لسان حاله ووشيَتْ بذلك نظرةُ الرّضا في عيْنيه ـ ثَمّة دقائق قليلة وتأتي امتثالْ. موعدها الواحدة وقد تتأخّرُ رُبْع ساعةٍ أو نصف ساعة. لا بأس. بإمكانه أن يستريحَ ويلتقط أنفاسه ترقُّباً لموعد وصولها. هي الطبيبة السّهْلة المُمْتنعة، التي توافقه على مطالبه بزيادة هذا

الصنف أو ذاكْ. تسْتجيب بأرْيحيّةٍ ورحابة صَدْرٍ لأسْلوبه المُهذّبْ في طرْحِ مَطْلبه. لكنّها تَحْرنُ حرونَ عَبْدِ السّوءْ حين تسْتشْعرُ لُؤْماً أو الْتواءً في حديثِ أحد المرْضَى وتُعنّفه في جفاءْ. عندئذٍ يمتلئ وجهها الأبْيض . شاهق البياضْ . بالحُمْرةِ، ويعلو صوْتُها وتتكاثرُ الكلماتُ المُندفعةِ من فَمِها بعضها فوق بعْض كأنقاضِ بيْتٍ مُتداعٍ. خطر له . لا يدري لماذا . أن يُلْقي نظرةً على جدول المواعيد المُلْصَقْ على الحائط. لمْ تستغرق نظرته أكثر من زمن اللّمحة الخاطفة حتى ارْتدّتْ إليْه في ذُعْر يدٍ لامستْ . سهْواً وغفْلة . جسْم ثُعْبانٍ أو ذيْل عقربْ. حاول أن يمتصَّ أثَرَ الصّدْمة بنظرة تدقيقٍ أخرى أملاً في أن يكون بالأمر ثمّة الْتباسٌ ما أو خداعُ بصرْ، لكنّ أمله خابَ وثبتت الرُّؤية: إبراهيم الدّيبْ. وهو مايزالُ جامداً أمام جدول المواعيدْ، يُحدّقُ فيه بخيبةِ أملٍ وقنوطْ، اسْتبانتْ له الحقيقة واضحةً لا لبْس فيها. الأوغادْ غيروا الجدول واستبدلوا طبيبته الأثيرة بهذا الوغْد الزّنيمْ، الذي يصف الدّواء بالقطّارة كأنه يقطع من لحمه الحيّ. لا مناص . الآنْ . من الانصرافِ سريعاً، مُخْتتماً وقائعَ اليومِ السّيّء بهذه المُفاجأة غير السّارّة، مُرْجئاً صَرْفَ أدوية صَدْره إلى يوْمٍ آخرْ؛ يَوْمِ امْتثالْ. غيْرَ أنّه ماكادَ يُكْملُ اسْتدارته مُيَمّماً وجْهه شَطْرَ سُلَّمِ النّزولْ، حتّى ارْتطمَ جسده بجسْمٍ غريبْ أقصرَ منه قامةً وأكْثَرَ بدانةً وأشدّ إعياءً. لابُدّ أنّ تصادمَ الجسديْن كانَ عفويّاً ومُباغتاً ارْتجّ له بدنُ الرّجلِ القصيرْ وصَدرتْ عنه أنّةٌ مكْتومة وقْعُها موجعٌ وأليمْ.

. ألا تَنْتبهْ..؟!

هنا فقطْ انتبه إلى وجه الرّجل الذي لم يكن يطْمعُ في أكثر من كلمة اعتذارٍ عابرة، بدا هو أيضاً مُهيّأً تماماً وعاقد العزْم على التّطوُّعِ بها دون عناءْ، مُتحاشياً أيّ تعقيدٍ آخر في أحداثِ يوْمه الغريبْ.

. لا مُؤاخذة..

أَلْقَى بها كما يُلْقي عابرُ سبيلٍ بورقةٍ مُهترئة أو منديلٍ ورقيٍّ فرغَ من اسْتعماله، في أقربِ صندوقٍ للقمامة. لمْ يُكلّفْه الأمْرُ أكثرَ من نظرةِ اسْتعلاءٍ وفضولْ يودّعُ بها وجه الرّجل المتأذّي إلى غير رجعة. نظرة شَبيهة بتلك التي درَج بعض الرّجال على إلقائها إلى داخل مناديلهم في كُلِّ مرّةٍ يتمخّطون بها. غير أنّ نظرته طالتْ ـ على غيرِ توقُّعٍ ـ واسْتقرّتْ طويلاً فوق وجه الرّجلِ باحثةً مُنقّبةً في ملامحه، نافضةً غُبارَ الزمنِ وتجاعيده وترهّلاته عن الوجْه الأبيض ذي النّمشِ الخفيفِ الذي بدتْ الحيْرةُ والقلقْ في قسماته، وفي حركاتِ عيْنيْه الغائرتيْن في محْجريْهما خلْفَ عويْناتٍ سميكة.

ـ تعْرفُني يا أسْتاذْ..؟!

انْتبه ـ أخيراً ـ إلى أنّ نظراته الفاحصة المُرْسِلَةَ إلى الذاكرة إشاراتِ اسْتحْثاثٍ مُتلاحقة، قد اسْتحالتْ عبئاً ثقيلَ الوقْعِ والوطْأة على نفسِ الرّجل، وهمّ بالانصرافِ فعْلاً، مُرْجئاً اسْتنطاقَ ذاكرته إلى وقْتٍ لاحقْ . غيرَ أنّه ماكادَ يسْحبُ عيْنيْه بعيداً عن وجه الرّجلِ، حتّى انبثقَ في عَتْمةِ رأسه خيطُ نورٍ أضاءَ سراديبَ ذاكرته، ثُمّ سُرعانَ ما اسْتحالَ وهجاً في العَيْنيْن، فشرراً مُتصاعداً واحتقاناً في الوجه وتَصَلُّباً في عضلاتِ الفكّيْن واحْمراراً بالأذنيْن.

ـ تَعْرفُني يا أستاذْ..؟!

وجد الرّجلُ المذعورُ من مشْهدِ الوجه المُتقلّص غضباً والعيْنيْن القاذفتيْن بشرَرٍ ـ ملاذه في تكرارِ سؤاله الذي أتبعه بسيْلِ أسْئلةٍ وعلاماتِ اسْتفْهامٍ وتَعجُّبٍ مُتلاحقةٍ ومُضطّربة، من نوْع: فيه إيه يا أستاذْ..؟! فيه حاجة..؟! إنْتَ تعرفني...؟! أنا أعْرفكْ..؟! والوَجْه المُحتقن بالغضب يزدادُ تجهُّماً، والعيْنانِ القادحتانِ شرراً تزدادان احْمراراً. حتّى هو أيضاً، الرّجلُ القصيرُ المشْدوه لغرابة ما يراه، بدأتْ دهشته تخفُّ قليلاً مع طولِ تحديقه في وجه الرجل الغاضبْ، وذاكرتُه تنتعشُ رويْداً وتُسْعفه بنزْرٍ يسيرْ من وضوح الرّؤية في مشهدٍ غامضٍ تماماً

ومُسْتغْلقٍ على فهْمه. هذا وجْهٌ ليسَ بغريبٍ عليْه. فقطْ لو انفرجتْ أساريره قليلاً، وانطفأت جذوة الغضبِ في عَيْنيْه، وتحرّرَ فكّاه من هذا الكزِّ المُؤلمِ على الأسنان والضّروس، فربّما يتذكّره. لعلّه زميلُ دراسةٍ أو عملٍ أو جليس مقْهى في زمنٍ ما سحيقْ. قبل أن ينجلي غموضُ المشْهدِ تماماً وتُسْعفه الذّاكرة ببصيصِ أملٍ يعينه على اسْتيعابِ هذا الموقفِ العصيبْ، داهمه صَوْتُ الرّجلِ كإطْلاقةِ رصاصٍ أصابتْ هدفها في القلْب.

. ألسْتَ أنتَ مَكْرَمْ..؟! مَكْرم الجارْحي..؟!

هَزَّ القصيرُ رأسه إيجاباً واسْتبشاراً، ويده تمتدُّ بالسّلامِ إلى الآخَر الذي لمْ يَعْبأْ بمسْحة التفاؤل التي طفرتْ على وجْه الرّجل، ورُبّما لم يَنْتبه إليْها أصْلاً، ولا إلى اليدِ الممدودةِ إليْه في سماحةٍ وسلامةِ نيّة، لأنّه كانَ قد أغمضَ عيْنيْه، في الحقيقة عطّلَ حواسّه كُلَّها منْ سَمْعٍ وبصرٍ وإحْساسٍ..و.. وكأنّه كان ينتظرُ فقطْ إشارة البدْءِ . في إيماءة الرّأس الصّغير . ليُكوّرَ قبْضَته ويهْوي بها . بأقصى ما أوتي من قوّة . على وجه الرّجلِ الذي أصابه ما يُصيبُ دابّةً ضالّة قادها حظُّها العاثر إلى قضيبِ قطارٍ مُنطلقٍ بسُرْعةِ البَرْق.

(2)

مكْرم الجارحي. كيفَ سَمَحَ لذاكرته اللّعينة أن تُسْقطه من صدارة المَشْهدِ إلى مجاهل النّسيانْ، حتى اضطُّرّ إلى بضْع دقائق اعتصرَ فيها ذاكرته اعتصاراً ليُخرجه من تحت أنقاضِ الذّكرياتِ وسَقْطِ متاعها..؟!. هو مكْرم الجارحي، الذي لم يُؤْذه أحدٌ قَدْرَ ما آذاه هذا الوغْد. مع أنّه لمْ يلْقه في حياته غيْر مرّةٍ واحدة، ولمْ يَسْتغْرقْ لقاؤهما أكثر من بضْع دقائقْ، بقيتْ صورته بعدها شاخصةً في مُخيّلته زمناً طويلاً، تُداهمه في كُلِّ أزْمةٍ أو موقفٍ عصيبٍ أو

مُصيبةٍ تُلِمُّ به في غُرْبته. تلك الغُربة التي طالتْ لعشْرِ سنواتٍ مُتّصلةٍ غير مُنقطعة، أمضاها مُتخبّطاً هنا وهناكْ، مُتنقّلاً بين عملٍ وضيعٍ إلى عملٍ آخر أكثر أو أقلّ وضاعة من سابقه، مُشْتغلاً يوْماً وعاطلاً مُتبطّلاً أيّاماً قد تطول لتصبح أسابيعَ فشهوراً. ثُمّ جاءت الحَرْب لتزيدَ طينه بلّة وأيامه قتامة: حرب الثّماني سنواتْ وحرْب الخليج الأولى والثانية. عاشَ سنوات القصْفِ بالطّائراتِ والصّواريخ وغاراتِ الأطْلسي، ورأى بيوتاً تتهدّمُ بين لحظةٍ وأخرى، وأشلاءً تتناثرُ وأجساداً تتفحّمُ، وزوْجاتٍ تترمّلُ، وأمّهاتٍ يُثْكلْنَ في فلذاتِ أكبادهنّ، وشبّاناً عائدين من الجبهةِ مسوخاً شائهةً مُقطّعةَ الأطرافِ فاقدة الحسّ والإدْراكْ. في كُلّ مشْهدٍ من هذه المشاهدِ، وعند دويّ كُلّ انفجارٍ وصفيرِ كُلّ غارة، كان مَكْرم الجارْحي مُلازماً له مُلازمةَ الظّلّ والهاجسِ والوسْواسْ. وفي أيامِ التعطُّلِ والإفلاسِ والتّجْوال اليائس في طرقاتِ المدينةِ وأزقّتها، وتحتَ شَمْسها المُحْرقةِ وبرْدها النافذ إلى عصبِ الأعظم، كان مكْرم الجارْحي رفيقَ رحْلةِ البحْثِ اليوميّ اليائس عن عملْ، يلقاه في كُلّ وجهٍ صفيقٍ لصاحبِ عملٍ يرُدُّه مكسور الخاطرِ أو يسْتهزئُ به أو يُهينه إهانةً بليغة، كذاك النَّغْل صاحب المطْبعة الذي سأله بفظاظةٍ وهو ينفثُ دُخانَ النّارجيلةِ من طاقتيْ أنفه الضّخْم ويعبثُ بيُسْراه ما بين فخْذيْه:

. تَعرفْ.. تُصُفّ الحروفْ..؟!

لمْ يكنْ قد سمعَ بمهْنة التّصْفيفْ هذه. أطْرقَ برأسه خجلاً من نفسه؛ هو الموظّف الحكومي ابْن الثلاثينْ الذي تركَ عمله ليبحثَ في أزقّةِ بلدٍ غريبْ عن عملٍ بمهنةٍ لم يسمعْ بها قَطّ. بالكادْ أسْعفه صَوْتُه وسْط حالةٍ من التشوّشِ تحفُّ به من كُلّ جانبْ:

. أتعلّمْ..

. تَتعلَّمْ..؟!!

ارْتجَّ جسدُه البدينُ بضحكةٍ بذيئة ونَحَّى مبْسمَ النارجيلة جانباً وهو يتفرَّسُ بعيْنيْن شَهْوانيّتَيْن في وجه الشّابِّ الواقفِ أمامه مُرْتبكاً عديم الحيلة.

. هلْ تَعْرفُ كم يلزمُكَ من العُمْر حتّى تتعلّمَ هذه الشّغْلة النّجسة..؟!

وحين رأى وجْه الشّابِّ المُمْتقع وحيْرته، اسْتطْردَ مُنساقاً بإغواءٍ شيْطانيٍّ في إذْلاله:

. يأتينا الصّبيُّ وهو ابْن ثماني أو عشْرِ سنواتْ، فنظلُّ نلوطُ به عَشْرَ سنواتٍ أُخْرَى حتّى يصيرَ خُرْمُه باتّساعِ عَيْن جالوتْ، قبْلَ أن نُسلّمه لوْحَ التصْفيفْ..!!

(3)

مَكْرم الجارْحي . ببساطة . هو الّذي أغواه ليرْتكبَ خطيئة السَّفَرْ. كانت أواخر السَّبْعينيّاتْ حيث اسْتحْكمت حلقاتُ النّهْب والسَّلْب والتّهليب وانتابت النّاسَ حُمّى السَّفَرْ، هرباً من جحيم حياةٍ لم تعُدْ تُطاقُ وعيشةٍ ما عادتْ تُحتملُ، أو طمعاً في ثراءٍ ومالٍ يجعلُ الحياةَ أقلَّ خشونةً وجفاءً. لمْ يكن المالُ أكْبرَ همِّه، هو الموظّف الحكوميّ المُؤهّلُ تأهيلاً عالياً يكفلُ له مُرتّباً لا بأس به، المشغولُ بهمومِ البلادِ والعبادِ، القارئُ المواظبُ على اقتناء الكُتُبِ والصُّحفِ اليوميّة والْتهامِ غَثِّها وسَمينها بنهمٍ لا يُقاوَمْ. ومع هذا، ظلّ وسْواسُ السّفرِ يُشاغلُه كُلّما ضاقَ ذَرْعاً بأحْوالِ البلَدْ، وتصاعدتْ مرارةُ الأيّامِ إلى حلْقه، إلى أن أصْبحَ الهاجسُ رغْبةً مُلحّةً في الرّحيلْ. لكنْ إلى أيْن.. والمنافذُ كُلُّها مُغلقةٌ من حوْله؟!. في هذه اللّحْظةِ الفارقةِ بالذّاتْ.. ظهرَ مكْرمَ الجارْحي . في معجزةٍ أشبه ما تكون بظهورِ السّيّدةِ العذْراء . مُحاطاً بهالةٍ نورانيّةٍ تليقُ بجلالِ الدّراويشِ من المُتصوّفةِ وأهْلِ الذِّكْر. كان يوْماً شتْويّاً غائماً ومُنْذراً بمطرٍ كثيرْ،

حين قطع صاحبه حديثهما فجأة وتوقّفَ عن السّيْرِ وهو يصيحُ في ما يُشْبه الشَّهْقة: مَنْ..؟! مَكْرم الجارْحي..؟! أرجوكَ الْكزْني في خاصرتي حتى أتأكّدَ أنه ليسَ حُلْماً..!!

بدا مشدوهاً تماماً وذاهلاً عمّا حوْله، حتَّى عن وقفته المُفاجئة التي طالتْ عمّا ينبغي وصارتْ عائقاً حقيقيّاً لسيْل المارّةِ الذي اضطرّ إلى الانحرافِ يُمنةً أو يساراً لتفادي الاصْطدام به.

. مَنْ مكْرم الجارْحي هذا..؟!

. ألا تعرفه..؟! مكرم هذا صُعْلوكٌ حقيرْ من صعاليكِ هذا الزَّمانْ.. سُبْحان مُغيّر الأحْوالْ..!!

نظرَ حيثُ يُشيرُ صاحبه بسبّابةٍ مُشْرعة تكادُ تفْقأُ عيْنا لعابرِ سبيلٍ لاذنْبَ له، وهو يُنحّيه . رُويْداً . عن وسط الشّارع المُزْدحم بما فيه ومَنْ فيه. حين صارا فوق الرّصيفِ آمنيْن . تقريباً . من احتكاكِ المارّة، لمْ يُطقْ صاحبُه صَبْراً فاندفعَ بكُلِّ عَزْمٍ وتصْميمْ إلى الهدف الذي اسْتحْوذ تماماً على حواسّه وأعصابه مُسْتنفراً كُلّ خليّةٍ في جسده. كان شابّاً في مُنتصف عقْده الثالث، قصير القامةِ ناعمَ الملْمس له مظْهرُ مُحْدثي النِّعْمة، ببزّته البيضاء اللاّمعة . في عِزّ الشّتاء . والخاتم ذي الفصّ الأرْجوانيّ في بنْصره القصيرْ، وسلسلة المفاتيح التي يُطوّحُ بها في الهواءِ يُمْنةً ويُسْرة فتلتفُّ على سبّابته بتناغمِ ورشاقةِ الواثقِ من نفسه. وقفَ مُتّكئاً على مُقدّم سيارة فياتْ نِصْف عُمْر، وحين رأى صاحبه مُندفعاً نحوه في عناقٍ حارّ، تلقّاه ببشاشةٍ مُصْطنعة، مُضطرّاً إلى تعديلِ وقْفته المائلة على السّيّارة حتّى انتهى العناق بينهما فعاد إلى سابقِ هيئته.

. مكرم الجارحي.. صديقْ عُمْر..

قال صاحبه في تقديمٍ موجز، أعقبه بحديثٍ مُختصرْ أشْبع فضوله في معرفةِ السّرّ الكامن وراء دلائل النّعْمة التي طفرتْ فجأة على صديق عُمْره فأحالتْه من صَعْلوكٍ نكرَة إلى سيّدٍ

مُحْترمْ يمتلكُ سيّارة فياتْ وخاتماً بفصّ كهرمانْ وسلسلة مفاتيحٍ ذهبيّة يُطوّخُ بها في خُلوّ بالِ مَنْ نفضَ يَديْه من همومِ المعيشة والمُرتّبِ المحْدود والاسْتدانة المُذلّةِ للنّفْسِ والانْكسارِ المُهين أمامَ رؤسائه المُباشرين وغير المُباشرينْ. السَّفرْ. سنةٌ واحدة بالعراقْ.. تفعلُ كُلَّ هذا..؟!

. تَفْعلُ كُلَّ هذا وأكْثرْ.. لوْ لمْ تكنْ يدي سائبة لادّخرْتُ ثَرْوةً وعُدْتُ بمالٍ مُعْتَبَرْ..

. وتأشيرة الدّخولْ.. ؟!

لأوّلِ مرّةٍ يتدخّلُ بالحوارِ بين صاحبه وصديقِ عُمْره.

. تأشيرة دخولْ..؟! دخول العراقْ لا يحتاجُ تأشيرة.. يمكنك السفر إلى الأرْدن ومنها إلى العراقِ بَرّاً..

أجابَ مكرم الجارْحي بقلّةِ اكْتراثْ، وإصْبعه لا يتوقّفُ عن الحركة بسلسلة المفاتيح الذّهبيّة. حين ذهبَ إلى العراقِ بعد ذلكَ ببضعة أسابيعْ، واسْتراحَ قليلاً من رحْلته البَرّيّة التي اسْتغْرقتْ أرْبعاً وعشرين ساعةً في سيّارةٍ تجمّد فيها جسده وتثلّجتْ أطْرافُه برْداً، وحفيتْ قدماه بضعة شهورٍ بَحْثاً عن عملٍ يكْفلُ له . على الأقلّ . عوْدةً مُريحة إلى بلده، بقي هذا المَشْهدُ لا يبْرحُ مُخيّلته، وكُلّما خابَ سَعْيه وتقلّصتْ آماله في العثورِ على عملٍ لائقْ، اشْتدّ حنْقه على هذا الوغْد وانتابتْه كوابيس الانتقامِ منه في أبشعِ صورها. عَشْر سنواتٍ أمْضاها مُتنقّلاً بين أعمالٍ غير لائقة، مُتعطّلاً أحياناً أو باحثاً عن عملٍ هنا أو هناكْ، حتّى عاد إلى أرْض الوطنِ خالي الوفاضِ إلاّ من فتاتٍ لا يعدلُ سنةً واحدةً من سنواتِ عُمره المُضيَّعِ في غُرْبةٍ لا ترْحمْ. الشّيْء الوحيد الذي أنجزه على خير وجه . بعد تجوالٍ طويلٍ وبَحْثٍ وتحرٍّ دائبيْن . هو الوصول إلى سِرِّ الثّرْوة التي عادَ بها مكْرم الجارْحي بعد سنةٍ واحدة من اغترابه هنا، على

هذه الأرضِ ذاتها بحرّها القائظ وبَرْدها المُهْلك. فلوسٌ حرامْ. قال له العليمُ بباطنِ الأمْر. وأضافَ قوْله: سرقها من ربِّ عمله وفرّ بها إلى بلده.

ومضَى في تفصيلِ الفِعْلةِ الشّائنة من أوّلِها إلى آخرها.

(4)

أخيراً . بعدَ أخْذٍ وردٍّ وشَدٍّ وجذْبٍ ومُحاولةٍ مُسْتميتة من قبلِ شابّيْن من رجال الأمْن لإثْنائه عن توجيه لكمةٍ أخرى إلى وجْه الرّجل القصير ضعيف البنْية . أمْكن الفَصْلُ بيْنهما، واسْتقرَّ به المُقامُ في غُرْفةِ الأمْن بمبْنى التّأمين الصّحّي.

. ما هي الحكاية يا أسْتاذْ..؟! ماذا فعلَ لكَ هذا الرّجُلْ حتّى تُؤذيه ...

. هذا الرّجُلْ..؟!

قالَ مُقاطعاً وهو يلْهثُ مايزالُ من فرْط التّعبِ والانْفعالْ، وأضافَ قوْله:

. هذا الرّجُلُ أضاعَ من عُمري عَشْرَ سنواتٍ كاملة.. وأذلّني إذْلالاً..

. لكنه يقولُ أنه لا يعرفك..

. رُبّما.. لكنّي أعْرفُه عزَّ المعْرفة..

بانَ شغفُ الشّابّيْن في نظراتِ العيون الأربع المُتطلعة إلى وجهه في فضولْ الْتماساً لحلّ هذه الأحجية.

. هَدِّئْ من رَوْعِكْ.. واحْكِ لنا الحكاية..

حين همَّ بالحديثْ انتابه شَيْءٌ أشْبه بالغُصّةِ في الحلْق. لأوّلِ مرّة يُدْركُ أنّ الحكايةَ التي ظلّت تؤرّقه ثلاثين عاماً وأكثر، لم تكنْ قابلةً للحَكْي، لأنّها ستجعله أضْحوكةً في نظرِ شابّيْن في عُمْر أولاده. قال مُتملّصاً بانفعالٍ مُصْطَنعْ:

. حكايتي لن أحْكيها إلاّ أمامَ ضابط البوليس أو وكيل النّيابة..

. المسألة بسيطة.. لاتحتاجُ بوليساً ولا نيابة.. الرّجلُ لا يعْرفك.. اعْتبرَها نوْبةَ جنونٍ مُفاجئة من عابرِ سبيلْ..

قالَ أحدُ الشّابّيْن وهو يُشيرُ له بإصْبعه إشارةً فهمَ منها أنه بوسْعه الآن أن ينصرف. نهضَ مُتثاقلاً بإعْياءْ. وهو يعْبرُ باب الغُرفة عابراً رُدْهةَ الطّابق السُّفليّ إلى باب الخروجْ، تناهَى إلى سَمْعه همْسُ أحد الشّابّيْن للآخرْ.

. فهمْتَ شَيْئاً..؟!

لابُدَّ أنّ الآخرَ هزّ رأسه نَفْياً وهو يُشارك زميله ضحكةً مكتومة. أمّا هو فقد مضى في حالِ سبيله أكثر ارتياحاً وأقلَّ توتُّراً، وصورة مكْرم الجارْحي . كما تبدّتْ له منذ أكثر من ثلاثين عاماً . تملأ مُخيّلته، فيراه واقفاً إلى جوار سيارته الفياتْ بوجْهه الصّقيلْ وشَعْره النّاعم المسَبْسب وسُتْرته الشّتْويّة البيْضاءْ . على غير العادة . مُمْسكاً بسلسلة مفاتيحٍ يهزُّها يميناً ويساراً فتلتفُّ حول سَبّابته وتعودُ لتنفلتَ في حركةٍ مُتواترة، بينما ساقاه لا يكُفّان عن الاهتزاز.

بِنْت القُنْصُلْ

وُلِدْتُ في ذلك الوقْت الذي أَصْبحَ فيه جميع مَنْ حَوْلي عجائزَ، أو على عتباتِ الشّيْخوخة. جميعهمْ بدوْا لي مُتْعبينَ مُنْصرفين عن أمور الدُّنيا، زاهدين في ملذّاتها، حاثّين الخَطْو نَحْو آخرتِهمْ، نافدي الصّبْر يثورون لأتْفه الأسباب وأحياناً دون سببٍ ظاهرْ، ضاجّين مُتذمّرين من كُلّ مُسْتجدّات العصْر وأخلاق الناسِ في هذا الزّمنْ. أكْثرهمْ نقْمةً على الحاضر وتباكياً على الماضي كان أبي. أمّا أمّي فهي أكثرهم تذُمُّراً على الإطْلاقْ. الغريبْ أنّ شكايتهم كانت تبدأ وتنتهي عندي أنا. فقد جئتهم في وقْتٍ غيرِ مُؤاتٍ لتربيةِ الصِّغار وهدْهدتهمْ وتهْنينهمْ. كأنّما هبطْتُ عليْهم من السّماءْ، ولم أكُنْ ثمرةَ اتّصالٍ جِنْسيٍّ تهيّأتْ فيه الظروفُ لواحدٍ من ملايين الحيوانات المنويّة التي اسْتمتع أبي بالخلاصِ منها، قاذفاً إيّاها . في ثقةِ الأيّامِ الخوالي وإثْباتٍ لرجولةٍ ذوتْ من زمنٍ بعيد . إلى رحمِ أمّي، فشَقّ طريقَه إلى بويْضتها المنشودة، مُتخطّياً كُلّ العوائقِ، حتّى اخْترقَ حجابها كالسّهم. لطالما تأذّيْتُ . وأنا قطعة لحْمٍ غَضّة بين يديّ أمّي . وهي تُلْقمني ثَدْيَها في غِلْظةٍ وجفاءْ، وكأنّها تَسْتخسرُ فيَّ بضْعَ رَشْفاتٍ من حليبِ ثَدْيها الذي كان قد ضَمرَ قليلاً وتهدّلَ مع تقدُّمِ العُمْرِ وتكْرارِ الحَمْل والرّضاعة. لابُدَّ أنها هي الأخرى كانت تسْتشعرُ الألمَ وأنا أطْبقُ بفمي الصّغير على حلْمة ثَدْيها، أعتصرُه اعتصاراً كمن يسْتمطرُ سحابةً جافّة. لهذا فَطَمتْني صغيرةً، بالكادِ بعد أن تجاوزْتُ عامي الأوّل ببضْعة أسابيعْ. لمْ أشْبعْ من ثَدْيِ أُمّي. كما لمْ أنْعَمْ بشهورِ حمْلٍ دافئةٍ مُريحة. لابُدّ أنها . والحديثُ مازال موْصولاً عن أُمّي . اسْتشْعرَتْ حرَجاً ما حين انقطعَ الطّمَثُ وبدأ بطْنها يَبْرزُ رُويْداً. في البدْء حسِبَتْه ولوجاً في سِنّ اليأس بعد خمْسَةِ أو سِتّةِ بطونٍ مُتتالية، ماتَ منهم مَنْ ماتْ،

وبقي على قيْد الحياة ثلاثة ذكورٍ، أصْغرهمْ يكبرني بثمانية أعْوام. لذا بدا تكوّرُ بَطْنها ومُثابرته على النّموّ والانتفاخ ـ في إصْرارٍ يدْعو للدّهْشَة ـ مفاجأةً مُرْبكة لها ولِمَنْ حَوْلَها. عبَثاً راحتْ تُداري خَجَلَها بعباراتٍ مثل: يا دي الكسوف.. هذه غَلْطة لنْ أسامحَ نفسي عليْها أبَداً..!! وتُشَدّدُ بهِزَّةٍ من رأسها وتأكيدٍ بإصْبَعها على كلمة "أبداً" هذه. ولادتي أيْضاً كانت ـ حَسْبَ وَصْف أمّي ـ أكثر ولاداتها عُسْراً. وتُغْمضُ عَيْنيْها نِصْفَ إغْماضَةٍ وكأنّها تَسْتحْضرُ ذِكْرَى أليمة: ظَلّ الطّلْقُ يروحُ عليَّ ويَجيءُ ثلاثة أيّامٍ بلياليهم، ونجيّة الدّاية جالسة عند قدميَّ لا تُفارقني لَحْظةً ولا تَغْمضُ لها عيْن. ثلاثة أيّامٍ بلياليهمْ وأنا أتقلّبُ من الوَجعِ حتَّى جاءَ الفرّجْ صبيحة اليوْم الرّابعْ..!!. وتُطْلقُ تَنْهدةً عميقة متبوعةً بِزَفْرَةٍ حارَّة وهي تَفْتحُ عَيْنَيْها لتَرْصُدَ أثرَ كلامِها على وجوه الحاضرينْ. وهُمْ ـ أو بالأحْرَى هُنَّ ـ جمهورٌ صَغيرْ من جاراتنا القريبات، فضْلاً عن عَمّاتي الثّلاثْ ـ اللاّتي سَمِعْنَ الحكايةَ مراراً وتكْراراً، وفي كُلِّ مَرَّة يتطوَّعْن بتأييدها وقدْ يُضِفْن من عِنْديّاتهنّ رتوشاً وتوابلَ ومُنكّهاتٍ على الرّواية، باعْتبارهنّ شهودَ عيانٍ غيرَ مَشْكوكٍ بشهادتهنّ. أبي وإخوتي الذكور لم يكونوا أقلَّ ضيقاً بمجيئي. حتَّى ذلك الزَّهْو الباطنيّ برجولته، الذي كان يُضْمره أبي وهو يُبدي تذمّره، سُرْعان ماتلاشَى مع الوَقْت وصارَ امتعاضاً صريحاً لا تُخالطه شائبة. وحذا حَذْوه إخوتي الثلاثة، لكنْ بفظاظةٍ أكثرْ وقلّةِ اكْتراثٍ، وغِلْظةٍ أحْياناً وصراخٍ في وجهي، يُسْلمانني إلى نوْباتِ بُكاءٍ لاتزيدهمْ إلاّ نفوراً وإصْراراً ـ يدْعو للدّهْشة ـ على تجنُّبي كما يتجنّبُ الأصحّاءُ مريضاً بالجُذامِ أو الجُدَري. وحْدَها عَمَّتي عائشة ـ أكبر العَمّاتِ سِنّاً وأقلُّهنَّ حظّاً من الجمالِ وأكثرهنَّ إيغالاً في العنوسَة ـ كانتْ ملاذي الآمنَ، في أوْقات الشِّدَّة، ونوباتِ البُكاءِ وساعاتِ الأرقِ المَسْكونةِ بكوابيس وخيالاتِ طفلةٍ فُطِمَتْ قبل الأوانْ، وأُلْقي بها في مهْمهٍ موحشٍ مهجورْ. على صَدْرِ وكتفِ عَمَّتي عائشة، ووقْعِ خَطْوها الوئيدْ وسْط الدّارْ، ونَهْنهات صَوْتها بنبْرته المُميزة وبَحته المعهودة، وهَدْهداتِ راحةِ يَدِها على ظهْري، تَتلاشَى شهْقاتُ جسدي رُويْداً، وتَحلُّ بي سكينةٌ سُرْعانَ ما

تسْتحيلُ خدراً ناعماً ودِفْئاً لذيذاً يَسْريانِ بأعضائي، يُسْلمُني دَبيبُهما بجسدي إلى نوْمٍ قريرْ، أصْحو منه لأجدني بحُضْنها، مُتوسّدةً ذراعها، في ذلك الرُّكْن القَصيِّ من غُرْفةِ العَمّاتْ. غير أنَّ حضْن عمّتي عائشة وهدْهداتها لم يَدُمْ أمدهما طويلاً. تزوّجتْ عَمّاتي الثلاث الواحدة تِلْوَ الأخْرَى وصِرْنَ ربّاتِ بيوتٍ تنتفخُ بطونهنّ بالحمْل وتهزلُ أبدانهنّ بالولادة والرّضاعِ وهموم البيْت والزوج والعيال والمعيشة وتصاريف الحياة وشكاياتها التي لا تنتهي. هكذا انقضتْ سنوات طفولتي، فلمّا بلَغْتُ عتباتِ الصِّبا صارتْ أيّامي المَدْرسيّة عناءً أحْتمله بصَبْرٍ وجلَدِ أُنْثَى تودّكَتْ بالإهْمالِ والنّبْذ والوحْدةِ وجهامةِ الوجوهِ وغلْظة الطّباعِ وجفاءِ الأقربينْ. كانت أيّامَ مُعاناةٍ وضيقِ صَدْر، ليس فقط بسبب طول الطّريق الذي يتعيّن عليَّ أن أقطعه بين المدْرسة الكائنة وسْط البلدة، في الجانب الحضَريِّ منها، إلى البيْتِ الواقع في أقصى الشمال ـ مع انحرافٍ بسيط ناحية الغرْب ـ من البلدة. طريقٌ مُحاذٍ لترْعة السّلامونيّة الآتية من فرْع رشيدْ جنوبْ غَرْب، لتحْمل ماءها إلى كُلِّ الحقول والبيوتِ المُمْتدة على جانبيْها ـ شرْقاً وغَرْباً ـ إلى ماشاء الله، عليَّ أن أقْطعه ذهاباً في الصباحاتِ الباكرة الباردة والمُثْلجة شتاءً، وإياباً بعد الظهيرةِ. ولا هي غلْظة أولي الأمْرِ والنَّهْي من مُعلِّمين مُهرّجينَ أحياناً، ومُصابين بأمراضٍ وعاهاتٍ جسديّةٍ ونفسيّةٍ أحياناً أخرى، يصبّون جامَّ غضبهم ونقْمتهم واختلال نفوسهم عليْنا نحن الصِّغارْ. وقليلٌ ـ أقلّ القليل منهم ـ سويٌّ لا عَيْبَ فيه، يسوسنا بعقلٍ وحكْمةٍ ورَحْمة. ليْسَ أيضاً تلْك الحصص الثقيلة التي يحشون فيها رؤوسنا بأشْياء نُرَدِّدُها من بَعْدهم كالبَبْغاواتِ، سُرْعانَ ما تتطايرُ دون أن تتركَ فينا أثراً. مِحْنتي ـ فضْلاً عن هذا كُلّه ـ تمثّلتْ في سياجٍ من العُزْلة نما معي يوماً بيوْم منذ الصِّغَرْ، أختبئُ خلفه آمنةً من كُلِّ سوءْ، مثْلَ كَدْسِ متاعٍ أُلْقيَ في غُرْفة الأمتعةِ القديمةِ ونُسِيَ أمْرُه، لاحاجةَ لأحدٍ بشَيْءٍ منه، ولاحاجةَ به لشَيْءٍ منْ أحَدْ. نظراتُ الاسْتصْغارِ والتّجاهلِ والرّغْبةِ الكامنة في اللّاوعْي الجَمْعي بالاسْتغناءِ عنه، تُزيده إحْساساً بالطُّمأنينةِ والنّجاةِ من أذى الغَيْر. الآنْ، وسْط هذا المُجْتمعِ المأهول

بأغرابٍ لا أعْلمُ ما بنفوسهمْ من خَيْرٍ أو شَرّ، مع إحْساسٍ عميقٍ بالانكشافِ، وخوفٍ دائمٍ من أن يَنْهارَ هذا السِّياج الهَشّ تحتَ نظراتِ الفضولِ وشَهْوة الكشْف وغريزة العدْوانِ في عيونِ الآخرين، صارتْ أيّامي المَدْرَسيّةُ عذاباً أسْتقْطره مع كُلِّ صباحٍ أصْحو فيه لأغتسلَ وألبسَ لباسَ المدرسةِ وأحملُ مِخْلةَ كُتبي، قاطعةً ذلك الطّريقَ الطّويل المُحاذي لترْعة السّلامونيّة، عابرةً ذلكَ الجِسْرَ الذي بدا اسْماً على مُسَمَّى . البَرْبَخْ . إلى المدْرسة. مَزْجٌ من التّوجُّسِ والخوفِ والهواجس المُؤرّقة، يَمْلؤني طيلةَ الوقْتِ، رغْمَ تشَبُّثي اليائسِ . دون جَدْوى . بالقَشّةِ الوحيدة التي تبقّتْ لي من تُراثِ طفولةٍ ما عُشْتُها، ومشاعر مُنْسحقةٍ تحت أقدامٍ داهمةٍ غليظةٍ من الإنْكارِ والتّجاهلِ والنّسْيانْ. ذلك أنَّ اختباءنا تحتَ جلودٍ سميكةٍ من الصّمْتِ لا يعْصمُنا من رَشْقِ عيونِ الآخرين المُتلصّصةِ وألسنتهم الحادّة المسْنونة. وقدْ كانْ. أسْماني أحدُهُمْ بِنْت القُنْصُلْ. ثُمّ سُرْعان ماشاعَ الاسْمُ بين الجميع وصارَ كُنْيةً يختلطُ فيها الهَزْلُ بالجِدّ، والسُّخريةُ بالمرارة. بِنْت القُنْصُلْ. لا أدري أيّة عبْقريّةٍ وأيّ خيالٍ مُلْهمٍ جادا بهذه التّسْمية التي أوْجزتْ . ببلاغة . صورتي في عيونهم. لابُدَّ أنّهمْ حسبوا اعتكافي بالعُزلةِ والصّمْتِ تعالياً وكبْرياءً لايليقانِ بصبيَّةٍ من عامَّةِ الخَلْقِ، لا تمتُّ بصلةٍ لأهْلِ الحسبِ والنَّسَبِ وأولادِ الذّواتْ، فأوْدَعوا اسْتهْزاءهمْ بي هذه المُفارقة بين الأصْل والصّورة. أيّاً مايكون الأمْرُ، فهذه الرَّمْيةُ البارعة منهمْ لمْ تُلْحقْ بي أذىً أو حَتَّى ضيقاً يُذْكَرْ. على النقيض من ذلك، كان بيْني وبيْن شَجرة "بِنْت القُنْصلْ" الوحيدة ببلْدتنا الصَّغيرة رباطٌ وثيقْ من ألْفةٍ تختلطُ بإعجابٍ غامضْ. اعْتدْتُ في طريقِ عَوْدتي من المَدْرسة أن أمُرَّ بها فأتوقّف بُرْهَةً عند بوابّةِ البيْت الحديدية، أتطلَّعُ إليْها عند الرُّكْن الشَّرْقيّ من سور الحديقة، مُرتفعة الهامة بأزْهارها الحمراءِ النّاريّة، في تيهٍ وعجبْ. بيْت القُنْصُلْ. لا أدري . ولا يدْري أحدٌ من أهْل البلْدة . إن كان صاحبه قُنْصُلاً حقّاً وصِدْقاً أمْ أنّه مُجرّدُ مُوظّفٍ كبيرْ شغلَ منْصباً رفيعاً، بإحْدى القُنصليّات بالخارجْ وتقاعدَ مُبكّراً. لمْ يَشْغلْنا هذا الأمْرُ في الحقيقة، قَدْرَ ما شُغِلْنا بالطّرازِ المِعْماريّ

الفريدْ للبيْت الذي بدا كقصْرٍ من قصور الأمراءْ، شُيّدَ بأناةٍ وذوْقٍ ومِزاجٍ رائقْ، إلى أن صارَ تُحْفةً معْماريّة تزهو بها بلْدتُنا وتُفاخرُ البلْداتِ الأخرى، حتَّى والسُّؤالُ مايزالُ مُعلّقاً بغيْرِ جوابْ، عن الحِكْمة التي جعلتْه يَخْتصُّ بلْدتنا الرّيفيّة الصَّغيرة . دوناً عن كُلّ الأماكن . بهذه الهبَة السَّخيّة، هو الذي طافَ بكُلِّ بلاد الدُّنيا ورأى من جنانِ الله على الأرْض ما يطيبُ به المُقامْ بما لا يُقارنُ ببلدتنا. كان القصْرُ يتألَّفُ منْ طابقيْن اثْنيْن، تُحيطُ بهما من الجهات الأرْبعْ، حديقةٌ واسعةٌ مُمْتدة، تُطلُّ بوّابتها الرئيسية على الضفّة الشّرْقية لترْعة السّلامونيّة، وتحْوي من أشجار الفاكهة والزّينة وحوْليّات الزّهورِ ماتتناقله ألْسن الناسِ في بلْدتنا . والبلْدات المُجاورة . بعجبٍ ودهْشَةٍ وإحْساسٍ مُضْمرٍ بالزّهْو. حكايات كثيرة عن البيْت وأهْله يتسامرُ بها الكبارُ والصِّغارُ بشغفٍ وتلذّذٍ واسْتثارة منْ يسْتحلبُ في فمه مُضْغةً لذيذة الطّعْم، يتمنّى لو أنّها لا تُفارقُ فمه أبداً، رغم أنّ مانعرفه ويعرفه الناس جميعاً عن البيْت وساكنيه قليلٌ حَدّ النُّدْرة. فالسّيّد الكبير صاحب البيْتِ وعائلته وخدمه مُسافرون معظم شهور السّنة خارج البلاد، يتردّدون على البَيْت طوال شهور الصّيْف، وتطول إقامتهم أحياناً لبضعةِ أسابيع أو تقصرُ لبضْعةِ أيّامْ. حين يجيئون يُضاءُ القَصْرُ ليْلاً وتدبُّ فيه الحياة، وتنسابُ منه موسيقى ناعمةٌ رقيقة الحاشية أحياناً، وفيّاضةٌ . أحياناً . بشجنٍ آسِرٍ غريبْ. في بعض الأماسي، يسْتقبلُ ضيوفاً زائرين من غيْر أهْلِ البلْدة، يأتون ويُغادرون بسيّاراتهم، وبزّاتهم الفاخرة ورائحة عطورهم العبقة. لا أحدَ منّا يَزْعمُ أنه رآهمْ أو سمعَ أصواتهم، إلاّ طيْفاً أو أطيافاً تأتي وتنسربُ في جوْف اللّيلِ دون أن يعرف عنهم أحدٌ من أهل البلدة شَيْئاً. حتّى خدم البيت . وهم في العادة مصْدر الأخبار والرّواياتِ في كلِّ البيوتْ . كانوا بضْعَ أجنبيّاتٍ مُتشابهاتِ السِّحنِ والملامح، بعيونهنّ الضَّيّقة ووجناتهن البارزة وقاماتهنّ القصيرة وأزيائهنّ المُتماثلة، مُتكتّماتٍ مُتحفّظاتٍ عابساتِ الوجوه، أصْواتهنّ خفيضةٌ دوْماً ولكْنتهنّ الآسيويّة خليطٌ من لُغاتٍ مُختلفة تمتزجُ بعامّيّةٍ ريفيّةٍ مُضْحكة، لا يخْتلِطنَ بأحدٍ ولا يتبادلْن حديثاً مع أحدٍ إلاّ قَدْرَ الضّرورة.

هكذا ظلَّ القصْرُ بسِحْره وغموضه أشْبه بأيقونةٍ مَجْهولةِ الأسْرارِ تُراودُ مُخيّلتي ومخايل الكبارِ والصِّغارِ من أهْل البلْدة، يُثيرُ فضولنا ويَفْتحُ شَهيّتنا إلى سماعِ حكاياته وتلقُّفِ أخباره. لكنَّه تحوّل ـ الآن ـ إلى هاجسٍ مُلحٍّ وانجذابٍ أشبه بانجذابِ المُتصوّفةِ إلى مقامٍ أو مزارٍ من بيوتِ الله وأضْرحةِ الأوْلياءْ. بِنْت القُنْصلْ. أهي رَمْيةٌ بِغَيْر رامٍ، أمْ تدْبيرُ قدرٍ مقسومٍ انْطبقَ فيه الأصْلُ على الظّلّ وامْتزجَ الصَّوْتُ بالصَّدَى..؟!. أيّاً مايكون الأمْرُ، فقد صارَ بيْتُ القُنْصل شُغْلي الشّاغلَ في ساعاتِ الخُلْوة ـ وما أكْثرَها ـ يأخذُني إليْه ولهٌ غريبٌ وإحْساسٌ بالوَحْشةِ كُلّما ابْتعدْتُ عنه، فأخْتلق الأعذارَ وأفْتعلُ الأسْبابَ للمرورِ به والاقْترابِ منه. ومَرَّتَيْن أو ثلاثاً رأيْتُ أهْلَه وساكنيه رأْيَ العَيْن وهمْ يترجّلون من سيّارتهم أو يُغادرون بوّابة القصْرِ إلى السَّيّارة. كان السّيّدُ رجلاً تجاوزَ مُنتصفَ العُمْر بقليل، طويلَ القامةِ أنيقَ الملْبسِ في رصانةٍ واتّساقْ، حادّ الملامحِ والتّقاطيعِ في وسامةِ أهْلِ النِّعْمةِ والثَّراءْ، والسَّيّدة أقلّ طولاً وأكثر رشاقةً وأصْفى بَشْرةً وأرقَّ حاشية، أمّا الابنة الوحيدة فقد بدتْ لفرْط نحولها ورقّتها أشْبه بدُمْيةٍ جميلة من دُمَى الأطْفالِ، دقيقة التقاطيع أشْهى ما فيها عيْنانِ سوداوانِ شديدتا الدُّكْنةِ رائقتا البياضِ، تنفذُ نظْرتهما إلى قرارِ القَلْبِ بخفْقةِ حُزْنٍ لا تُفارقه أبداً. الْتقتْ عيوننا لِلَحْظةٍ عابرة، بدتْ كأنّها عناقٌ حميمْ، بيْن تَوْأميْن لمْ يفْترقا من قَبْل. لابُدَّ أنّها تكْبرُني بعاميْنِ أو ثلاثة، لكنها في مثلِ طولي تقريباً، بياضُ وجْهها الصّافي يُخالطه شحوبٌ لا أثَرَ فيه لتلْك الحُمرة الشَّفقيّة التي تصطبغُ بها وجوه الصِّغارْ. بِنْت القُنْصل الوحيدة، مذْ الْتقتْ عيْنانا أوّلَ مرّة، صارتْ رفيقة وحْدتي في أوْقات الخلوة، تُحادثني وأُحادثُها، ننْسجُ ـ معاً ـ حكاياتٍ، ونَجْترحُ أحاديثَ من الخيالِ، نحْكي لبعْضنا وقائعَ وأحداثَ يَوْمنا الفائت ونتندّرُ بسفاسفِ الكبارِ وحماقاتهم التي لاتنتهي، نَضْحكُ معاً ـ لأوّلِ مرّةٍ أذوقُ طَعْمَ الضّحْكة الصّافية النّابعةِ من القلْب ـ ونقصُّ أحْلامنا اللّيّةَ ونُفسّرها على هوانا، نُسْلمُ أنْفسنا ـ معاً ـ لإغفاءةٍ طويلةٍ وأحْلامِ يقظةٍ نفيقُ منها على خدرٍ ناعمٍ ودفْءٍ لذيذْ يَغْمرُ جسَدَيْنا. تَتْبعُني كظلّي في غُدوّي

ورُواحي، أراها ـ كما رأيْتُها أوّلَ مرَّة ـ واقفةً بانتظاري عند بوّابةِ القَصْرِ بيدها وِرْدةٌ مُندّاةٌ بندى الصّباحِ أو زَهْرةٌ حَمْراء ناريّة من زَهْراتِ بِنْت القُنْصلْ، تُقدّمُها إليَّ وأساريرُ وجهها مُشْرقةٌ بابتسامةٍ فاتنة تتأبّطُ ذراعي فأصْطحبُها معي إلى المدْرسةِ ونعودُ معاً عابرين بسوقِ البلْدة إلى الضّفّةِ الشّرقيّة لترْعة السّلامونيّة، أودّعها عند بوّابة القصْرِ على موْعدٍ باللّقاءِ صباحاً. وأحْياناً، في أيّامِ العُطلِ أدعوها إلى بيْتنا الرّيفيّ على الضّفَّةِ الغَرْبيّة، فنَصْعدُ معاً إلى سَطْح البيْتِ، حيث شَجرة التّوتِ المُعرّشةِ بأغْصانها على حافّة السَّطْح، تبتسمُ لي بتَهيُّبٍ وأنا أُمسكُ بأطراف أصابعها النحيلة وأقودها بوثوقٍ إلى حافّة السَّطْح، تُغْمضُ عَيْنيْها الجميلتيْن وطيْفُ الابتسامة يُضيء ـ مايزالُ ـ وجْهها الشّاحب، أقْطفُ لها ثَمَرَ التُّوتِ الأبيض وأضعه في فمها برفقٍ فتتّسعُ ابتسامتها ويكتسي وجهها بمسْحة رضاً تزيده حُسْناً وهي تسْتطْعمُ حلاوة التُّوتِ في فمها، وحين تلوحُ بوادرُ الشَّبعِ والاكتفاءِ على وجْهها، نتراجعُ معاً بعيداً عن حافَّةِ السَّطْح الخطرة ونهبط الدّرجَ حيث الباب الغرْبيّ الذي يُفْضي إلى جُرْن الغلالْ. تقفُ مبْهورةً وهي تتطلّعُ إلى أكوامِ التِّبْن المُكدّسةِ بالجُرْنِ وعَمّي يقفُ مُنتصباً تحت شمس تمّوز اللاّهبة، مُمْسكاً بالمذْراةِ يغْمسها في كومة التبن ويرفعها عالياً فتتساقط حبات القَمْح الثقيلة على الأرْض وتتطايرُ عصفاتُ التِّبْن مع الريحِ بعيداً. تطْفرُ أسْئلةٌ كثيرة وعلاماتُ اسْتفهامٍ على مُحيّاها فأبادر بشرْح ما غمض عليْها، نضْحكُ معاً ونحن ننصرفُ بعيداً إلى قناة المياه الصغيرة المحاذية لضفافِ التِّرْعة، نعْبرُ معاً القنطرة الخشبيّة إلى الضّفّةِ الأخرى، أقفُ بتهيُّبٍ وحياءْ أمام بوّابة القصْر المُغْلقة على أسْراره وأهمُّ بتوْديعها لكنْ لا يُطاوعني قلبي أمامَ حُزْن عَيْنيْها المُتوسّلتيْن، أتْبعها إلى حديقة القصر وهي تقودني وسط مجازٍ مُظَلّلٍ بتكعيبات العنبِ ومفروشٍ بالحصَى تحفّه من الجانبيْن أحواض الزهور وأشجار الزينة، أتنفّسُ عبقَ الهواء المُشبّعِ برائحة الزّهْرِ والقدّاحِ، نصلُ أخيراً إلى الشُّرْفة الواسعة للقصْر، نصْعد معاً بضْعَ درجاتٍ قبل أن نتخذ جلْستنا على كُرْسيّيْن مُتجاورَيْن من الخيْزران المفروش بحشْيةٍ وثيرة.

تلوحُ على وجْهها علامات التّعبِ فأسْتأذنها في الرّواحْ، لكنها تسْتمْهلني بعيْنيْن ضارعتيْن. تأتي خادمةٌ أو وصيفةٌ من وصيفات القصْر بصينيّةٍ عليْها كوبا عصيرٍ وطبقٍ مملوءٍ بفاكهة الموْسم. تقولُ لي بعيْنيْن غافيتيْن قليلاً وهي تناولني كوب العصيرْ: حَدِّثيني عن نفْسكْ. نرْشفُ معاً من كوبي العصيرِ قبل أن أفتح لها قلبي ببوْحٍ لمْ يَخْرُجْ يوْماً للنّورْ. أحْكي لها عن طفولتي الباكرة، ويرْتجفُ صوْتي بألمٍ لم أكنْ أعْلمُ من قبْل قدْرَ فداحته، أسْتشْعرُ ضَغْطة كفّها على يدي، وأنا أستطْردُ إلى سنواتِ الوحْدةِ والوحْشةِ والإحساسِ المُمضّ بالنَّبْذ والتّجاهلْ. حين أفرغُ أخيراً، تُطْعمني من ثمرِ الفاكهةِ وهي تمسحُ دموعي، وتُحدّثُني ـ بصَوْتٍ واهنْ ـ عن قَلْبها المريضْ والعضلة الضّعيفة وشبح الموْتِ الذي يتربّصُ بها في كُلّ لحْظة، تحْكي لي عن البلاد البعيدة التي زارتْها مع والديْها التماساً للشفاءْ، والأطباء الذين تناوبوا فَحْصَها بمجسّاتهم وأشعّاتهم وآلاتهم الدّقيقة، والمصحّات والمُنتجعات التي تردَّدتْ عليْها للاسْتشفاءْ. وتقولُ لي وصَوْتها يرتعشُ كذُبالة شَمْعةٍ توشكُ على الانطفاءْ: قيلَ لنا أنّ جوّ هذه البلدة يُناسبنا، فجِئنا إلى هنا.. لأُلْتقيكِ. وتلتمعُ عيْناها فجأة وهي تُغالبُ ضَعْفَها: تعرفينْ.. سأرْحلُ عنْكِ يَوْماً.. لكنّنا لنْ نفترقَ أبداً. وحين ترى كثافة الحُزن في عيْنيّ المُرغْرغتيْن بالدّموعِ تُغالبُ إعياء صَوْتها: هل أعْزفُ لكِ شَيْئاً..؟! وقبلَ أن تتلقَّى جواباً، تنهضُ لتغيب قليلاً داخل القصْرِ، وتعود بيدها كمانٌ صَغيرْ وتتّخذ مجلسها إلى جواري وتشْرعَ في العزف. ينسابُ صَوْتُ الموسيقى هادئاً في البدايةِ، مُحمَّلاً بمسْحةِ حُزنٍ شفيفْ، يتسلّلُ إلى جسدي بدفءٍ آسرٍ يُسْلمني إلى إغفاءةٍ طويلة، أُفيقُ منها على صَوْتٍ أجشّ من أصواتهم الجارحةِ الغليظة: تُكلّمينَ نَفْسَكِ.؟!!.

سباق الماراثون

و..

الوجه الآخر للسيدة تاتْشَرْ

قالتْ زوجتي بصوْتٍ خفيضٍ له أرْيَحيَّةٌ خاصَّة وهي تُوجِّه الخطابَ لأُمّي وأبي وأخْتي الصُّغْرَى فائزة:

. اللَّيْلَة تَسْهرونَ مَعَنا.

كانتْ قد انْحَنَتْ قليلاً وهي تَضعُ إبْريقَ الشّاي على المِنْضدة الخشبيَّة الصَّغيرة التي تتوسَّطُ الغُرْفَة، ويَدُها الأخرى تحوطُ طِفْلَها الرَّضيعَ مُسْندةً إيَّاه على مَهلْ، قبل أن تتَّخذَ مَجْلسَها إلى جوارِ أُمّي على الأريكة المقابلة.

قالتْ أُخْتي فائزة البَيْضاء النَّحيلة التي بَلَغَتْ بالكادِ ربيعَها الخامسَ عَشَرْ وهي تُقلِّبُ عَيْنَيْها اللَّوْزيَّتَيْن على اسْتحْياءٍ بين وجوهِ جَمْعِنا الصَّغيرْ وشاشةِ التِّليفزيون المُلَوَّنة:

. اللَّيْلة فِيلْم..

واصْطَبغَ وَجْهُها بِحُمْرةٍ خَفيفة وهي تزمُّ شَفَتيْها على عَجَلٍ وتُداري كسوفَها وتَسْتُر بروزَ أسْنانِها الذي يَظْهرُ قليلاً حين يَنْفرجُ فمُها بالحديثْ، لكنَّ نَبْرةَ صَوْتِها كانتْ مُحَمَّلةً بفَرَحٍ طفوليٍّ بانَ في تَوثُّبِ كلماتها السَّريعةِ المُقْتضَبَة. تَنَحْنَح أبي الجالسُ إلى جواري ورَمَقني بنظرةٍ أنيسة وهو يَلُمُّ جلْبابَه الرّيفيَّ ذا اللون الرَّصاصي الباهت، واعْتَدلَ في جِلْسته. بدا لي

من قلقِ عَيْنيْه اللَّتيْن لا تثبتان على شيء أنَّه راغبٌ في طَرْقِ حديثٍ خاصّ لا يعرفُ كيف يُمْسكُ بطَرفِ خَيْطِه، فلبثَ يتحيَّن اللَّحْظة. حاولْتُ أن أُخَمِّنَ، لكنَّ المُذيعَ قطعَ عليَّ اسْترسالي. كانت نبْرةُ صَوْتِه الحادَّة الرَّصينة تتردَّدُ في جنباتِ الغُرْفَةِ كأنَّها رَنينُ جِسْمٍ مَعْدَنيٍّ عميقِ الجُرْس، فأمَرْتُ زَوْجَتي أن تَصُبَّ الشَّايَ في الأكْوابْ. قالتْ أُمّي بلهْجةٍ آمِرةٍ وهي تُخاطب أختي فائزة:

ـ قومي يا بنْت.. صُبّي الشّايْ.

كانت أختي مُسْتغْرقةً في تَتَبُّعِ الصُّوَرِ المُلَوَّنةِ وهي تَتْرَى بتناغُمٍ مع صَوْتِ المذيعِ على الشّاشةِ الصَّغيرة، وحين أتاها صَوْتُ أُمّي أجْفَلتْ فاعْتدلتْ في جِلْسَتِها وهي تَرْنو إلينا بِنَظْرةِ اعْتذارٍ خَجْلَى، وشَرَعتْ في وَضْعِ مُكعَّباتِ السُّكَّرِ في الأكْوابْ. نَظرْتُ في ساعةِ يدي المُلْقاةِ أمامي على المِنْضدَة وَجَدْتُها قد جاوزَت الثّامنةَ بقليلْ. كان الجَوُّ مائلاً للحرارةِ ومُشَبَّعاً برطوبةٍ خفيفة، وكان التِّلفازُ يَبُثُّ نَشْرةً مُفَصَّلةً لأنباءِ العالَمْ، ولاحَ لي وَجْهُ زَوْجَتي تحتَ ضوءِ المصباحِ الباهتِ مُنَدّىً بعَرَقٍ خفيفْ، لكنه بدا مقبولاً في اسْتدارتِه وسُمْرَتِه الحِنْطيَّة وشَعْره الجَعدِ الأسْودِ المفْروقِ عند مُنْتصفِ الرّأس. كانت زوجتي تُنْصتُ بانتباهٍ إلى حديثِ أُمّي المَهْموسِ وهي تَخْتلسُ بين الحين والحينِ نَظْرةً عَجْلَى على الشّاشَةِ المُلوَّنَة. انْبعَثَتْ ضحكةٌ مفاجئة بين أمّي وزوجتي، وحين نَظَرْتُ مُسْتَفْسراً وجدْتُ أُمّي تُشيرُ بيدِها إلى الشّاشةِ التي كان يَشْغَلُها وَجْه السيد "خافيرْ بيريزْ دي كويّلار"[1] وهي تَسْترُ فمَها الضّاحكَ بِطَرفِ ملاءتها، وقالتْ زوجتي مُوَضِّحةً وهي تواصلُ الضَّحكَ بِتَحفُّظٍ بَيْنما أنظارُنا مُسلَّطةٌ ما تزال على وجه الرجل:

ـ تقول إنَّها حين تنظرُ إليْه تَحْسَبُه يَبْكي...

عَلا صَوْتُ أمّي بالضَّحكْ، وضَحكْتُ أنا الآخَرْ، وتحرَّكَ رأسُ الطِّفْلِ الرَّضيعِ نحو مَصْدرِ الصَّوْت. كانت فائزة قد فرَغَتْ من تَذويبِ السُّكَّرِ في الأكْوابِ، ونهَضَتْ تَحْملُ صينيَّةَ الشّاي

[1] أمين عام الأمم المتّحدة (1982 - 1992)

وتضَعها أمامَنا على النَّضدِ القريبْ. وكانت ثمَّة ابتسامةٌ باهتة على وَجْهِ أبي الذي بدا مَهْموماً بشاغلٍ غَيْر مَنْظورْ. قُلْتُ لزوجتي وأنا مشغولٌ ما أزالُ بتخمينِ الأمْرِ وتأمُّلِ التّجاعيدِ الخَشنةِ الغائرةِ في وَجْهِ أبي:

. أحضري عُلْبَةَ السَّجائرْ..

قالتْ أمّي وهي توجّه حَديثَها إلى أختي فائزة:

. قومي .. هاتي عِلبة السجاير لأخوك..

كان في صَوْتِها مسْحَةُ تأنيبٍ خفيفة، لكنَّ فائزة وقفَتْ في تَهيُّبْ، شَأْنُها دائماً حين يكون عليها أن تَدْلفَ إلى غُرْفةِ نَوْمنا. هَمَّتْ زَوْجتي بالقيامِ لكنَّ أُمّي ضَغَطتْ فخْذَها بِيدِها، وهي تَسْتَمْهلُها قائلة:

. أنتِ حامِلْ.. والوَلدْ على إيدِكْ...

قُلْتُ مُوَجّهاً حديثي إلى فائزة التي بَرحَتْ مكانَها على اسْتحياءٍ مُتَّجهةً صَوْبَ غرفةِ النَّوْم:

. علْبة السّجائر عَندكْ..

ووصَفْتُ لها المكانْ. انْتعشَ وَجْهُ أبي قليلاً لكنَّه راغَ بعَيْنيْهِ بعيداً وهو يتفادَى نَظْرتي إليْه، كأنّه يبحثُ ما يزالُ عن تَوْطئةٍ للحديثْ. كان السَّيِّدْ دي كويّلارْ ما يزالُ يُوجِّهُ خطابَه إلى الحضورْ. لاحظْتُ تقاطيعَ وجْههِ عن كَثْب، كان كَسْمُ وجْههِ . بانْحدارِ خَدَّيْه وبروزِ شَفَتِه العُلْيا وكثافةِ حاجبيْه . يوحي حَقيقةً بأنَّه على وشكِ البكاءِ أو فرغَ منه لِتوّه، وداخلَتْني الرَّغْبةُ في الضَّحِكْ، لكنّي انْشَغلْتُ بِمَرْأى فائزة وهي تَخْطرُ قادمةً بعُلْبةِ السَّجائرْ. سألَني أبي من بابِ المُجاملةِ على ما يبدو عن اسْمِ الرَّجُلِ وهو يُشيرُ بإصْبَعه نَحْوَ الشّاشة، وحين نطَقْتُ باسْمِه كاملاً بانَت الحَيْرةُ في عَيْنَيْه وسألَني وأثَرُ صَدْمةٍ خَفيفَة تَلوحُ على وجهه:

. هل هو انْجليزي..؟!.

تردَّدْتُ قليلاً وأنا أبحثُ عن جوابٍ بَسيطْ يفي بالمُرادْ، وقفزَ إلى مُخيّلتي مشهدٌ قديمْ من فيلمٍ رأيْتُه في صبايَ يَحْكي عن أوَّلَ سباقٍ للماراثونْ في بلادِ الإغريقْ. كان الفتْيانُ يَرْكضونَ في حَماسَةٍ وهِمَّة، بينما وقفَ عجائزُ المدينةِ وأطْفالُها مُحْتشدين على جانبي الطَّريقْ، بَيْنَهمْ ثَمَّة عجوزٌ طاعنٌ في السِّنِّ، ضعيفُ النَّظرِ ثقيلُ السَّمْعَ، لا يكفُّ عن السّؤال كلما اسْتَشْعرَ الضجيج من حوله واستغلق عليه الفهم: لماذا يَرْكضونَ هكذا..؟!. وضاقَ الصَّبيُّ الواقفُ إلى جواره بكثرةِ لجاجِه، فاهْتدَى إلى حيلة يتملَّصُ بها من ثرْثرةِ العجوز ويكْفي نفسه مؤونةً الجوابْ، كان كلما سأله لماذا يفْعلون كذا..وكذا، يجيبه باقتضابٍ وهو يَصْرخُ في أُذُنِه: هذا أمْرٌ يطولُ شَرْحُه..!!

قُلْتُ لأبي في فتورْ:

. لا .. ليس انجليزيّاً.

خشيتُ أن يُعاودَ أبي السُّؤالَ، لكنه لاذَ بالصَّمتِ وبدا غَيْرَ راغبٍ في الاسْترْسالِ، والحَيْرةُ في عَيْنَيْه ماتزالْ. كانت أختي فائزة قد جاءت بعلبةِ السّجائرِ ووضَعَتْها على النَّضدِ قبل أن تعود إلي مجلسها بجوارِ أُمّي. فتَحْتُ العُلْبَة وقدَّمْتُ سيجارةً لأبي أخذَها مُرْتبكاً وحَوَّطَ يدي براحتيْه الخَشنتيْن . وأنا أُشْعلها له . مُغَمْغماً بكلماتٍ مُدْغمة، ومَضَى يُحدِّثُني وهو يَرْشفُ الشّايَ بصوْتٍ مَسْموعٍ عن بَعْضِ شؤون الزِّراعةِ وفلاحةِ الأرْضِ ووقائعِ اليَوْمِ الفائتِ في الحَقْلِ والسِّمادِ والبذارِ ونَوْباتِ الرَّيّ، وسألني أخيراً عن حِصَّةِ القَمْحِ التي سوف يَتعيَّنُ عليْه أن يورِّدَها هذا الموسم للحكومة، وحين لاحظَ شرودَ ذِهْني عاد يسألُني إن كانوا حقّاً سوف يُعْفونَ صغارَ الزُّرّاعِ من توريدِ الحِصَّة. كان وَجْهُ السَّيّدة تاتشر[2] قد ظهر على الشاشة؛ البياضُ الحليبيُّ المُشَرَّبُ بحُمْرةِ الشَّفَقْ، وتاجُ الشَّعْرِ الأشْقرِ مثل ذوائبِ اللَّهبْ، ووهَجُ الحياةِ الطّافرُ مِنْ زُرْقةِ العَيْنَيْن كأنَّه وميضُ البَرْقِ الخُلَّبِ؛ يَخْطفُ البَصرَ ويَمَسُّ أهْدابَ العصَبِ ويسْتَكنُّ في نُخاعِ الأعْظُمْ. ظهورُها المُباغتُ . مثْل انبثاقِ عَيْنِ ماءٍ في صَحْراء جَرْداء قاحلة

[2] رئيسة وزراء بريطانيا (1979 - 1990).

. غمرَني بذلك الإحْساسِ الذي خَبُرْتُه دَوْماً دون أنْ أعْرفَ كُنْهَه، يَتمَشَّى في جسدي كدبيبِ النَّمْلِ وسريانِ العُصارةِ ومَلاسَةِ المياهِ التي تَسْبقُ انْهيارَ الجُرْف؛ مَزْج من خَدَرِ النَّشْوةِ ونزيزِ الاشْتهاءِ وتَوتّر الرَّغْبةِ وارتخاءِ القنوطِ المُتولّدِ من العَجْزِ من بلوغِ الفِعْل. إحْساسٌ لا أمْلكُ وَصْفَه، كأنَّه مُرَكَّبٌ كيماويٌّ لا تنْحَلُّ عناصره، حين يتملَّكُني أُحسُّ جَسدي مدينةً مُحاصَرة تَتحيَّنُ لحظةَ السقوطِ والاسْتباحَة. انْتبَهْتُ على صَوْتِ أمّي وهي تقول بلهْجةٍ وسَطْ بين السّؤالِ والتَّقريرْ:

. مَلكَة الانجليزْ..؟!

رَدَّتْ أختي فائزة على عَجَلْ:

. لا...

ومضَتْ تَشْرحُ لأمّي بصوْتٍ هامسٍ يَنُمُّ عن الزَّهْو بسَعةِ الاطِّلاعْ، وحين فَرَغتْ زَمَّتْ شَفتيْها وظهرَ على وَجْهها أثَرُ احْمرارٍ خفيفْ وهي ترْنو إلينا في وجَلْ. كان وجْهُ السَّيّدة تاتْشرْ ما يزال، وزوجتي تتهيَّأ للنّهوضْ. بانَ انتفاخُ بطْنِها وابْتَسمتْ لي بوداعة وهي تَنْتصبُ واقفة. وسألْتُها وأنا أُبْصرُ الطِّفْلَ النّائمَ على صَدْرِها:

. .. نامَ أخيراً..؟!

أوْمأتْ لي برأسها علامةَ الإيجابْ وهي تتَّجه صَوْبَ الغُرْفةِ لتضعَ الطفلَ في الفراشْ. قال أبي أخيراً وقد يَئسَ من طول الترقُّبِ والانتظارْ:

. جِئْتُ أحدِّثُكَ في مَوْضوعْ....

صَدقَ حَدْسي إذن، ظلَّ أبي طيلةَ الوقتِ يَكْربُ مثل الدَّجاجَة، وها هوذا يَتهيَّأُ الآن لوَضْع البَيْضَة. قُلْتُ وأنا أصْطنعُ إرْهافَ السَّمْعِ وعيَنْايَ تَتنَقَّلان في توفُّزٍ بين وَجْهِ أبي والوَجْهِ الماثلِ على الشّاشةِ ببياضه الشّاهقِ المُنيرِ بألقِ الحياة، والعنقِ المُشْرعِ النّافرِ كأنه لِمُهْرةٍ عَصيَّةِ المِراسْ، قُلْت:

. خيرْ .. إن شاء الله..

قَبْلَ أن يَشْرعَ أبي في الحديثِ أشارتْ أُمّي بطَرْفِ عَيْنها إلى فائزة فنهضَتْ على عجَلٍ وتَبِعتْ زوجتي إلى غُرْفةِ النّوْم. كان وجْهُ السّيّدة تاتْشَرْ قد توارَى عن الشّاشةِ والمُذيعُ ينْتقلُ من فَقْرةٍ إلى أُخْرَى في عَرْضِ الأنْباءْ. قال أبي وهو يَزْدردُ آخِرَ رَشْفةٍ في كوبِ الشّايْ:

. خيرْ.. خيرْ..

وأرْدفَ بعد توقُّفٍ وجيزْ:

. أختك فائزة...

تفرَّسْتُ في وَجْهه مُسْتفْسراً وأنا بين التَّوجُّسِ والدَّهْشَة، وتنَحْنحَ أبي قبل أن يسْتَطْردَ وعيناه على وجْهي ترصدانِ . في تَحسُّبٍ . أثَرَ كلماتِه:

. جاء مَنْ يَخْطبُها..

هَتَفْتُ بلهجةٍ بين الاسْتفسارِ والإنْكارْ:

. .. فائزة..؟!

اسْتَشْعرَ أبي الحَرجَ قليلاً فازْدَردَ ريقَه وكأنّه يَمْتصُّ وَخْزَ الكلمةِ التي أفْلتَتْ منّي دون وَعْي. وقالت أمّي مُسْتدركة:

. جَدَعْ إبْن حلالْ ومَسْتورْ.. وأهْلُه ناسْ طيّبونْ..

لُذْتُ بالصَّمتِ وصورة فائزة بجسدِها الطّفوليّ الغَضّ تُراودُ مُخيّلتي، واسْتطْرَدتْ أمّي التي تَشَجَّعَتْ بخلودي إلى الصَّمْت:

. يقولون أنه صنايعي وكَسّيبْ.. وكُلّ شيءْ جاهزْ.. السَّكَنْ والأثاثْ..و.....

مَضَتْ تُعدِّدُ مزايا الزّيجةِ المُرْتَقَبة، وتَرَكْتُها تَسْترْسلُ على سَجيَّتِها حَتَّى إذا فرَغَتْ من المهمَّةِ التي قَرَّرتْ أن تَضطّلعَ بها حين لاحظَتْ تَعَثُّرَ أبي. أخيراً قُلْتُ بصوتٍ ناطقٍ بالغيْظِ والحِنْق:

. يبدو أنّكم قد انْتهَيْتُمْ إلى رأي..

ثُمَّ أرْدفْتُ بخشونة:

. ما هو المطلوبْ مِنّي إذَنْ..؟!

قال أبي مُسْتدْركاً بلهجةِ اعْتذارٍ وتَرْضية:

. أنتَ أخوها الكبير.. والرّأي رَأيَك..

قلتُ مُحْتدّاً:

. لَمْ يَعُدْ لي رَأْي..

كان المذيعُ قد فرغَ من قراءة الأنباءْ. قُمْتُ ونَصَّيْتُ الصَّوْتَ قليلاً، وعُدْتُ إلى مجلسي بجوار أبي. وأنا في غَمْرةِ الانفعالِ خطرَ لي أن أُطْفيء الجهازَ إيذاناً بانْفضاضِ الجِلْسَة. كان جسدي مَسْكوناً بِتَوتُّرٍ لا يُحْتَملْ، لكنَّ ظهورَ زوجتي المفاجيء عند باب الغُرفة جعلني أتريَّثُ قليلاً. قال أبي وهو يبحثُ عن مَنْفذٍ للحديثِ الذي أوْصَدْتُ بابه عن عَمْد:

. جئنا هنا لكيْ نَسْمعَ رأيك..

قلتُ وأنا أحاولُ عبثاً أن أُسَيْطرَ على نبراتِ صَوْتي:

. رأيي أن فائزة ما تزالُ طِفْلَة..

ثم أردفْتُ بصوتٍ خافتٍ قليلاً:

. دعوها تُكْملُ تَعليمها ولا تفتحوا عينها على هذا الكلام..

قالت أمّي بصوتٍ واضح النّبراتِ وهي تتبادلُ مع زوجتي نظرةً ذات مَعْنَى وتُفْسحُ لها مكاناً بجوارها على الأريكة:

. الزواج سُتْرَة للبنت.. وياما بناتْ أصْغَرْ من فائزة اتزوّجوا وعَمَّروا بيوتْ..

قلْتُ بنفادِ صَبْرٍ وأنا أحسُّ بالنّفورِ من كُلِّ شَيْءٍ حَوْلي:

. أنا قُلْت رأيي.. وأنتم أحْرارْ.. زوّجوها لهذا الصَّنايْعي إنْ شِئْتُمْ.. لكن لا تَفْتحوا هذه السّيرة أمامي بعد الآن...

قال أبي برفْقٍ وهو يُحاولُ تَصْفيةَ الجَوِّ الذي تَعكَّرْ:

. علامَ الغَضبْ..؟ نحن لمْ نَرْتبطْ معهم بكلمة بعد.. والرّأي رأيَكْ..

قُلْتُ بلهجةٍ جارحة وأنا أتطلَّعُ إلى وَجْهِ أُمّي الذي بدا يَعْلوه الكدَرْ:

. يبدو أن رأيي لا يروق لأمّي.. بِقَدْرِ ما يُعْجِبُها هذا الصَّنايْعي..

نكَّسَ أبي عَيْنَيْه ورمقَتْني أمّي بنظرةٍ مُعْتَكِرَة دون أن تَنْبَس بِبَنْتِ شفة، وقالت زوجتي بصوتٍ هاديء النَّبرةِ وهي تحاول تلطيفَ الأثرِ الذي خلَّفَتْه كلماتي:

. الحكاية بسيطة.. إنتظروا شوية.. فكروا على راحتكم.. وبعدين ردوا عليه..

إذَنْ فالمَسْألة في نظَرِ زوجتي مسْألة وقْت.. كلماتٌ ظاهرُها التَّرْضية وباطنُها التّواطُؤ. قلت لها وأنا لا أستطيع السَّيْطرةَ على جسدي المُخْتلجِ بالغضبْ:

. هل تَكْفينا مَؤونةَ مَواعظك.. وتَتفضّلينَ علينا بالسّكوتْ..؟!

الْتمَعَتْ عَيْنا زَوْجَتي وهي تَنْظرُ إليَّ وشَبَحُ ابْتسامَةٍ باهتةٍ على وَجْهها الذي بدا تحت ضوْءِ المصباحِ أكْثرَ شحوباً، لكنّي نَحَّيْتُ عَيْنَيَّ بعيداً وأشْعَلْتُ لنفسي سيجارةً وقدَّمْتُ لأبي واحدةً أخذَها مُمْتَنّاً ومُرْتبكاً في آنْ. كانت فقرةُ الإعلاناتِ التي تَسْبقُ الفيلْم قد بدأتْ، وتلْكَ الأصْوات

المتداخلة الغريبة تزيدني تَشَوُّشاً. فكَّرْتُ أن أنهضَ بنفسي وأُغْلق الصوت لكنّي قبل أن أشْرعَ في النهوض عَدَلْت. قُلْتُ لزوجتي وأنا أضع نهايةً حاسمةً للحديثِ الذي كان حَبْلُه قد انْقَطعَ بالفعْل:

. نادي على فايزة.. تيجي تُقْعد معانا..

تبادلَتْ أمّي وزوجتي نظرةً خاطفة، وراغَ أبي بعيْنيْه بعيداً وهو يَنْفضُ رمادَ سيجارته في المنفضة، وقالت أُمّي بصوتٍ يمتزجُ فيه الغضبُ بالانكسارْ:

. نادي على فايزة.. خلّينا نروح...

قالتْ زوجتي بصوتٍ مَبْحوحٍ وقد بوغِتَتْ بقوْلِ أمّي:

. تروحوا ..؟! انتوا حا تسهروا معانا الليلة.. الفيلم حا يبدأ بعد شويّة..

خَيَّمتْ على المكان لحظةُ صمتٍ ثَقيلْ قبل أن يأتيني صوتُ أمّي وهي تُنادي على فائزة التي هَرَعتْ إلى الغُرْفةِ بخُطىً مُتعثِّرة، وعادتْ زوجتي تُكرِّرُ رجاءها وهي تَرْمقني بنظرةٍ عاتبة كأنّها تَسْتَحثُّني لأقولَ شيْئاً، غَيْرَ أنّي لمْ أفْعَلْ. كان كُلُّ شَيْءٍ حَوْلي يَبدو فاتراً وثقيلاً، وثَمَّة إحساسٌ بالخورِ والتَّحَلُّلِ يَسْري في جَسدي، يَسْلُبني كُلَّ رغبةٍ في الفِعْل. لَبِثْتُ صامتاً أتأمَّلُ المشهدَ الماثلَ أمامي، وعَيْنا أبي تَخْتلسان النَّظَر إليَّ من حينٍ إلى حينٍ اسْتجداءً لكلمةِ تَرْضِيَة، وحين اسْتَشْعر الحَرجَ قال مُطَيِّبا خاطري وهو يَتهيّأ للنّهوضْ:

. هيه .. اسْمحوا لي.. أنا طول النَّهارْ في الغيطْ.. وانْتوا عارْفين شُغْل الفلاحَة..

واسْتطردَ وهو يَفْتعلُ التَّثاؤبَ ويَتظاهرُ بالضَّحكْ:

. والسِّنّ له أحْكامْ..

قالتْ زوجتي بإلْحاحْ:

ـ طَيِّبْ علشان خاطر فايزة.. شوفوا الفيلم.. وبَعْدين روحوا..

قالتْ أُمّي وهي تَهمُّ بالنّهوضِ وتُعدّلُ ثَوْبها الأسْودَ من أثر الجلوسِ وتُحْكمُ ملاءتها حول عنقها:

ـ فايْزة عندها مدرسة .. ولازم تنامْ بَدْري..

ثُمَّ أضافَتْ وهي تَتْبَعُ أبي إلى بابِ الخروجْ:

ـ تِصْبحوا على خيرْ..

جاءتْ فائزة وسَلَّمَتْ عليَّ قبل أن تَتَّجَه صوْبَ البابْ. بدا وجْهُها الأبيضُ مُمْتقعاً ونَظْرةُ انْكسارٍ في قاعِ عَيْنَيْها. تَناهَى وَقْعُ أقْدامهم على الدَّرَجِ إلى سَمْعي مُتداخلاً مع صياحِ زَوْجتي التي وقفَتْ عند مَدْخلِ البابِ تَتَوسَّلُ إليْهم، وحين نَفدَ صَبْرُها نَظرَتْ نَحْوي بتَحَفُّزٍ ودَهشة وهي تصيحُ بي:

ـ ألا تقولُ شَيْئاً..؟! تَتْركهم يذهبون هكذا..؟!

قُلْتُ وجسدي مَسْكونٌ ما يزالُ بِتَوتُّرٍ مُلْجمٍ ثَقيلْ:

ـ اتْرُكيهمْ على راحَتِهمْ.. هُمْ لَيْسوا أغراباً..

حين عادت زوجتي أخيرا أمرتها أن تطفئ جهاز التليفزيون وتذهب لتستريحْ. لكنها لم تفعل. استلقت على الأريكة الخالية وهي تلهث بأنفاس متلاحقة من فَرْطِ الانفعال والصياح، ولاحت على جبينها وخدَّيْها حَبّاتُ عرقٍ نافر. قالت بلهجة وسط بين العتاب والتأنيب وصدرها يختلج ما يزال:

ـ اسْتَرَحْتَ الآن..؟! خلا لكَ الجَوّ.. حين كَسَرْتَ بخاطرهم..؟!

قُلْتُ بنفادِ صَبْرٍ وأنا راغبٌ ـ أكْثَرَ منْ أيِّ وَقْتٍ آخَرْ ـ في الإنفرادِ بِنفْسي:

. هذه الحكاية فَرَغْنا منها.. هل نُعيدها مُجَدَّداً..؟!

قالتْ بإصْرارٍ وعَيْناها تَلْتمعان ببريقٍ غريبْ:

. لَمْ نَفْرغْ بَعْد.. أنتَ في غَضَبكَ تَنْسَى الواجبْ والأصولْ.. حتَّى مع أقْرَبِ النّاسْ..

قُلْتُ وأنا أحسُّ بداخلي مِرْجَلَ غَيْظٍ لا يَنْفَثيءْ:

. وماذا كنتِ تَنتظرين مِنّي..؟! أوافقْ على هذه الزّيجة الكريهة.. وأُباركها..؟!

وأضَفْتُ قَوْلي وأنا أنْتَصبُ واقفاً من فرْطِ الانْفعالْ:

. إنَّهمْ يَجْنون بِجَهْلهم على هذه البِنْت المِسْكينة..

قالتْ زوجتي وهي تمسحُ حَبّاتِ العَرَقِ عن جَبينها وعَيْنيْها:

. ومَنْ قال لكَ أنّها هي نَفْسُها غير راغبةٍ في هذا الزَّواجْ..؟!

قُلْتُ بِنَفَسٍ مَبْهورْ وأنا أُعاودُ الجلوسْ:

. ماذا ..؟! هل قالتْ لكِ شَيْئاً..؟!

أطْرَقْتُ في صَمْتٍ وهي تَروغُ بِعَيْنيْها مِنّي وقالتْ:

. هذه الأشْياءْ لا تَخْفَى عن العَيْن..

وأرْدَفتْ بلهجةٍ يَغلبُ عليها التَّأثُّرْ:

. هل رأيْتَ فَرْحَتها وتَوَرُّدَ وَجْهها حين جاءوا..؟!

قُلْتُ بإصْرارْ:

. فائزة طِفْلة لا تعرفُ ما يَضُرُّها وما يَنْفَعُها.. والذَّنْب ذَنْب الكبارْ الذين ملأوا آذانها بهذا الكلامِ الفارغْ..

واسْتَطْرَدْتُ مع شيءٍ من التَّشْديدِ على مخارجِ الحروفْ:

. .. إنَّه الجَهْل..

قالتْ زَوْجَتي بِصَوْتٍ مُتْعَب لكنَّه واضحُ النَّبْرةِ ثقيلُ الوَقْع:

. لَيْسَ الجَهْل.. بَل العَوَزْ..

وأكْمَلَتْ بعد فَتْرةٍ وجيزة:

. .. أبوكَ حِمْلُه ثقيلْ.. وهو لَمْ يَفْعَلْ جُرْماً حين فَكَّرَ في زواجِ البِنْت..

قُلْتُ مُقاطعاً وأنا أحولُ بَيْنها وبين الاسْترسالْ:

. وأنا حِمْلي أثْقَلْ.. هل قَصَّرْتُ في شيءٍ من واجبهمْ..؟!

تجاهَلَتْ عبارتي الأخيرة واسْتطْرَدَتْ بنفسِ النَّبْرةِ الثَّقيلة:

. أبوكَ باعَ نِصْف الأرْض على تَعْليمك.. وباعَ النِّصْف الباقي عَلَى زواجِ أخواتك الأرْبَعْ.. وقِطْعة الأرْض المؤجَّرَة لا تكادُ تفي بالمَعاشْ..

وتَغَيَّرَ صَوْتُها قليلاً وهي تُكْمل:

. أبوكَ وجدَ في زواجٍ فائزة فُرْصةً للتَّخفُّفِ من هذا العِبْء.. وأرادَ أن يُخفِّفَ عن كاهلك عِبْءَ المعونةِ أيْضاً..

قُلْتُ بِحِنْقٍ وأنا عاجزٌ عن الاسْترْسالِ وعاجزٌ عن التَّراجُعْ:

. مَنْ قال لكِ هذا الكلامْ..؟!.. هُمْ..؟!

قالت باقتضاب لكنْ في صوت مُخْتنقٍ مُفْعمٍ بالتَّأثُّرْ:

. لمْ يَقُله أحَدْ.. أنا أحْسَسْتُه في عيونِ الكُلّ..

وأضافَتْ في تأثُّرٍ حَقيقي:

. مَنْ يَرَ أباكَ الآنْ لا يُصَدِّقُ أنّه الرَّجُلَ الذي عَرِفْناه ونَحْن صِغارْ.. هل تَذْكُرْ..؟! كانتْ شَخْطَتُه تَخْلعُ قلوبَنا من الرُّعْب.. الآن أصْبحَ مثل الطِّفْلِ الدَّليلْ.. يُحدِّثُكَ في تَحسُّبٍ ورَهْبَة كأنّه الإبْنُ وأنْتَ الأبْ..

قُلْتُ ورَغْبتي في الاختلاءِ بنفسي باديةٌ في نبْرةِ صَوْتي:

. أليْسَ النَّوْمُ أفْضَل لكِ ولَنا من هذه الحِكَمْ التي لا تَجْلبُ غيرَ النَّكَدْ..؟!

وأضفْتْ بلهجةٍ جَهِدْتُ أن يكون فيها من الجِدِّ أكْثر ممّا فيها من الهَزْل:

. صَدقَ مَنْ قالْ.. نَوْم أمْثالكْ عِبادَة..

قالتْ بصوتٍ ليّنٍ لِتُخفِّفَ قليلاً من تَوتُّرِ الجَوّ:

. كلمة الحَقّ دائماً تُغْضبْ..

وأرْدَفتْ وعَيْناها تَسْتعيدان صَفْوَهما الأنْثويّ المعْهودْ:

. مَنْ يَقْل الحَقّ هذه الأيّامْ .. لا يَسْلَمْ..

قُلْتُ وقد زالَ تَوتُّر جسدي قليلاً وأنا أنْساقُ خلْفَ حديثها الآخذِ في اللّينْ:

. حين جِئْتِ إلى هذا البَيْت كُنْتِ مثل القطَّة المغمَّضَة.. الآنْ صِرْتِ تتحدَّثين بالحِكْمَة!!

قالتْ بِدِلٍّ أكْثَرْ وهي تَتحسَّسُ تَكوُّرَ بَطْنها:

. مَنْ عاشرَ القَوْم!!

كان صَوْتُ الطِّفْل يَنْبعثُ من داخلِ الغُرْفةِ فاتراً في البداية، ثُمَّ ما لبثَ أن اسْتحالَ إلى بُكاءٍ صارِخْ. نهَضتْ زوجتي وهي تُهرْولُ بِقَدْرِ ما يُسْعفُها جَسدُها المُثْقلُ بالحَمْلِ وغابتْ في فَراغِ

الغُرْفَة، وسَمِعْتُ صَوْتَها وهي تُهَدْهدُ الطِّفْلَ حَتَّى تَلاشَى صَوْتاهُما معاً. لَبِثْتُ وَحْدي في الغُرْفةِ الخالية. كانت أكْوابُ الشّاي الفارغةُ على المنضدة، وأعْقابُ السّجائرِ المُنْطفئة بأطْرافها المُتَفحّمة ورؤوسِها المثْنيَّةِ المُجعَّدة في المنْفضة الزُّجاجيّة، وكان مَوْضعُ أبي على الأريكةِ ما يزالُ واضحَ الأثَرْ. ظَهرَ وجْهُ المُذيعةِ الجَميلةِ على الشّاشةِ وهي تُعْلنُ بِصَوْتها النّاعمِ عن بدْءِ السَّهْرَة. قُمْتُ فأطْفأْتُ الجهازَ وعُدْتُ إلى مَجْلسي. ثَمَّة صُورٌ وأصْواتٌ وخواطرُ شتَّى تتزاحمُ في مُخيّلتي؛ تنثالُ على رأسي المُثقلةَ مُتلاحقةً مُضطَّربة دون هوادة. ولمْ أعُدْ واثقاً من شَيْءٍ سِوَى جَسدي الذي لا أملكُه، والصَّمْتُ المُتكاثفُ من حَوْلي يزيدُني تَوَغّلاً في باطنٍ خاوٍ مُظْلمٍ لا قَرارَ لَه. حين أوَيْتُ أخيراً إلى الفراشِ عاودني ثانيةً ـ فيما يُشْبه الرُّؤيا ـ ذلك الوَجْهُ المَلكيّ، ببياضِه الشَّمْعيّ الرّائقْ والحُمْرَة القُرْمزيَّةِ في الشَّفتيْن، والعُنُق المُشْرَع مثل نَصْلِ السَّيْف، والشَّعْر الأشْقَر المَعْقوصْ كأنَّه عُرْفُ فَرَسٍ جامِحْ طَيَّرتْه الرّيحْ، والوَهَج الخَلاّبْ في زُرْقَةِ العَيْنيْن. شَعُرْتُ باسْتثارةٍ مُفاجئة تَطْفرُ مثل رَغْوةِ الزَّبدِ في جَسدي المُتْعَبْ. وأنا أمُدُّ يَدي المَعْروقَة إلى جَسَدِ زَوْجتي المُسْتسْلمِ للنّوْمِ إلى جواري تذَكَّرْتُ وَجْهَ صَديقي الذي غابَ عَنّي زَمناً ولَقيتُه اليومَ في باحةِ السّوقْ، فسَلَّمَ علَيَّ بِحرارَة وسألني عن أحْوالي، قُلْتُ له أنَّني بِخَيْر، وأنّني أنْفَقْتُ قِسْطاً لا يُسْتهانُ به من سَنواتِ عُمْري في بلادِ النَّفْط، وحين عُدْتُ إلى البلدةِ عَمَّرْتُ بَيْتاً جديداً وتَزوَّجْتُ واحدةً من بناتِ عَمّاتي رُزِقْتُ منْها بطِفْلٍ والثاني في الطَّريقْ، ورأيْتُ عَيْنَيْ صديقي تَمْتلآنِ بالرّضا وهو يُصافحني مُودِّعاً، وحين ابْتَعدْتُ قليلاً تَلَفَّتُّ ورائي دون وَعْي، فوَجَدْتُه هو الآخَرْ يَخْتلسُ النَّظرَ نَحْوي، وبدا مُرْتبكاً كَمَنْ ضُبطَ مُتلبّساً وأراد أن يَسْتُرَ فِعْلتَه، فعادَ يبتسمُ لي في مَودَّة، ورفعَ يدَه مَرَّةً أُخْرَى مُكَرّراً تلْويحةَ الوَداعْ.

العَوْدة إلى البَيْت

بَعْضهم يُفضّلُ الطّريقَ الأطْوَلْ إلى البيْت. لَسْتُ واحداً من هؤلاء. لكنْ هذا ما أنا عليه الآن. مادُمتُ أعيشُ . الآن . آخر لحظاتي بهذا العالَمْ؛ عالَمكمْ. العبارة ليستْ من عندي. لكنها ميراثٌ أحمله معي في طريقِ عوْدتي من مَقْهايَ الأثيرْ. اللاّعبُ الفائز بالدّوْر الأخيرْ في لُعبة (الدّومينو) السَّخيفة، نطقَ بها في ظفرٍ وتُشَفٍّ وهو يُنْهي المُباراةَ لصالحه: ألَمْ أقُلْ لكَ من الأوّلْ.. لنْ تأخذَ منّي حَقّاً ولا باطلاً..؟!. ثُمَّ ضاحكاً ببساطة وهو يَطْوي صَفْحة انتصاره ويحافظُ على شعْرة الصداقةِ بينه وبين صديقه وغريمه باللعبة في الوَقْت ذاته: لا بأس.. بعْض النّاس يُفضّلُ سلوكَ الطّريق الأطْوَلْ إلى البَيْت. فَجْأة، بدون أيّةِ مُقدِّماتْ، قَفَزَ السُّؤالُ إلى ذِهْني واضحاً وضوحَ الشَّمْس. السُّؤالُ ذاتُه الذي ظلَّ يحومُ حولي وأحومُ حَوْلَه زَمناً طويلاً، رُبّما مُذْ بدأ وَعْيي يَتَفتَّحُ على العالَمْ، دون أن أمتلكَ الكلماتِ المُناسبة للتَّعْبيرِ عنه. يااه.. عُمْرٌ كاملْ، أمْضَيْتُ منْه قِسْطاً لا يُسْتهانُ به، مُتَنقّلاً منْ بلدٍ إلى آخَرْ، وعُدْتُ خالي الوفاضِ إلاّ من لكنةٍ غريبةٍ في اللّسان بفعْل اللُّغات التي تعاقَبَتْ عليْه، وذكْرياتٍ تزدحمُ بها ذاكرتي، تتسلّلُ خِلْسةً إلى أحلامي اللّيْليّة، تُراودني قليلاً لحْظةَ الصّحْو، ثُمّ ما تلْبثُ أن تفرَّ كالطّيورِ المذعورة في زحمة النَّهارْ. الآن، بوسْعي أن أصوغَ السُّؤالَ على هذا النَّحْو: أيُّهما أسْبَقُ في الحدوثْ.. إحْساسُنا بالأشْياءْ، أمْ تَقْديرُ وقوعِها المُحتَّمْ..؟!. لا.. مازال السُّؤالُ يكْتنفه الغموضُ شَيْئاً ما. لكَيْ أُزيدَ الأمْرَ وضوحاً أجدُني مُضْطرّاً إلى الرّجوع كثيراً إلى الوراءْ. إلى تلْك الفتْرة العصيبة من غُرْبتي عن الوطنْ، تحْديداً تلْكَ الأيّامُ أو الشّهورُ، ورُبّما السّنواتْ، التي ابتُليتُ فيها بمحْنةِ الفَقْد. رَبابْ، إلْفيَ الوحيدُ بالغُرْبَة، الذي غافلني ورحلَ عنّي في

حادثِ دَهْسٍ مُرَوِّعْ هو بالانْتحارِ أشْبه. كانتْ حاملاً ـ في شَهْرها الرّابعْ ـ بابْنتنا التي أوْدعْناها كُلَّ لحظاتِ العِشْق الصّافي، والبَوْحِ الجميلْ. تلْكَ قصّةٌ حزينة، لا أقْدرُ على الولوجِ لتفاصيلِها، ولا الإثْقال بفداحةِ حُزْنها عليْكمْ. المُهمّ، أنّ رَبابْ رحلتْ وتركتْني لُغْزبةٍ موحشةٍ، وعُزْلةٍ روحيّةٍ مُخيفة، مسْكونةٍ بأشْباح كثيرة، تعايشْتُ معها وتعايشَتْ معي، فقَدْتُ فيها كُلَّ شَهيَّةٍ للزّادِ، وكُلَّ رَغْبةٍ في مُخالطةِ النّاسِ، وخسرْتُ معها رُبْعَ وزْني تَقْريباً، لكني كسِبْتُ بالمُقابلْ ـ إن كان ثَمّة مكْسبٌ في هذا ـ ذلك الإحْساسَ المُرْهفَ بالأشياءِ قبل وقوعها. صارت الأشياءُ تتجسَّدُ في مُخيّلتي صُوراً ورُؤىً وإرْهاصاتٍ باطنيّةٍ، أحسُّ ـ إحساساً غريزيّاً ـ بِقُرْبِها الوشيكْ. أغْنيةٌ تَطْفرُ من قاعِ الذّاكرة فجأة، أصْحو في الصَّباحِ وإيقاعاتُ لحْنها وكلماتها تتردّدُ أصْداءُها في داخلي. أظلُّ قلقاً بعْضَ الوقتِ، وقدْ أُغْفلها أو أتغافلُ عنْها أو أنْساها في زحْمةِ الأحداث والمشاغل، حتَّى أتنبّه فجْأة على سَماعها مُذاعةً عبْرَ موْجاتِ الأثيرْ. كلمةٌ أو عبارة لشخْصٍ أعرفه، تنبعثُ فجْأة من أنقاضِ الزّمن القديم، تَثبُ إلى ذاكرتي بإلْحاحٍ ولجاجة، كتابٌ أو مجلّةٌ أو شَيْءٌ ما أبْحثُ عنه ويُصيبني اليأس من العثور عليْه، فأتْركُ الأمرَ برُمّته حتى يصيرَ في مجاهل النّسْيانْ، ثُمّ في لحظةٍ ما مُباغتة، تنفتحُ طاقةُ نورٍ في الذاكرة تُضيء الطريق إليْه، أو يَنْبثق هاتفٌ من أعماقِ الحسّ، أتْبعه ـ كالسّائرين نياماً ـ إلى حيثُ ضالّتي المنشودة. شَخْصٌ يغيبُ عنّي أو أغيبُ عنه زمناً حتى ينقطعَ ما بيني وبيْنه، وفي لحظةٍ ليستْ في الحُسْبانْ، تقفزُ صورته إلى مُخيّلتي وتتّسعُ رويداً حتّى تملأها بفيْض تداعياتٍ عفي عليها الزّمن، إلى أن ألقاه أمامي وجهاً لوَجْه. في البدْء.. نَعْزو الأمْرَ إلى الصُّدْفة البَحْتة، ثُمَّ إلى مُفارقات العقْل التي لانملكُ لها تفسيراً، لكنّنا مع تكرارِ الأمْرِ وتواتُرِ حدوثه، نجدُ أنفسنا إزاءَ سؤالٍ مُلحّ: أيُّهما العلّةُ وأيُّهما المَعْلولْ..؟! هلْ هو الحدثُ القادمُ إلينا يُرْسلُ ذبْذباتِه، كقطارٍ آتٍ يُطلقُ صفيرَه على البُعْد، لينبّه أحاسيسنا بما لا مناصَ من حدوثه..؟! أمْ أنّها رَغْبتُنا المطْمورة في أعْماقِ لاوَعْيِنا تَصْحو من طولِ سُباتٍ لسببٍ مجهولٍ لنا، تقودُ

خُطانا إلى غايةٍ أو مَشْهدٍ أو حدَثٍ لا يَدَ لنا فيه..؟!. سؤالٌ يظلُّ يُحاورُنا ويُداورُنا دون أن نَعْثرَ له على جوابْ، دونَ حتّى أن نَعْرفَ كيفَ نصوغه صياغةً مُناسبة، حتى يتوه منّا في زحْمة الحياة. لكنْ.. لماذا الآنْ..؟! أعني لماذا تنبعثُ أصْداءُ هذا السؤال وتداعياته في هذا الوقت بالذّاتْ، الذي أصْبحْتُ فيه على مشارفِ السّبْعينْ..؟!. رُبّما هو حُلْمُ اللّيْلةِ الفائتة، الذي لم أعُدْ أذكرُ منه غيرَ نُتفٍ مُتفرّقة من مشاهد مُتقطّعة، كُلّما حاولتُ تَجْميعها لا أجد لها دلالةً سوى الإحساسِ العميقْ بالخَوْف.. خَوْف منْ شَيْءٍ ما وشيكْ..!!. الحُلْمُ ذاته كان غائماً ومُضَبّباً، لا أعرفُ كيف أسْردُ وقائعه، لأنه ليس به ثَمَّة وقائع غيرَ ساحةٍ واسعةٍ مُلبّدةٍ بالغيوم، وأنا وسْطَ وجوهٍ أعرفها ولا أعْرفُها، أشْبه بشجرة الوجوه المُخْتبئة، أبْحثُ عن شَيْءٍ أو وَجْهٍ ما وأشْعرُ بالقنوطْ، لأنّ الوجوه كُلّها ـ لفرْط تَشابهها ـ لا ملامحَ لها، ولا علاماتٍ فارقةٍ بها. كُلُّها وجوه خاويةٌ من المعْنى، بعيونٍ مُفرّغةٍ جوْفاءْ، تنسحبُ نظراتُها إلى داخلها، هي الأخرى تدورُ حوْلَ بَعْضِها البَعْض في حلقةٍ مُفْرغة، لا تُفْضي إلى شَيْء ولا تصلُ إلى غاية. ورُبّما كانتْ هُناك في مكانٍ بعيدٍ لا تكاد تُدْركه العَيْن، تلّةٌ مُرْتفعة عليْها طاولةُ خُبْزٍ لا تصلُ إليْها يدٌ من تلك الأيادي التي تتحسّسُ مواطئ الخَطْوِ وسط جوٍّ رماديٍّ مُلبّدٍ بالغيوم والغُبارْ. لا تنظرُ إليْها حتّى عيْنٌ من تلك العيون المُفرّغةِ في محاجرها. أهي المجاعة..؟! أمْ هو الإحساسُ بدنوِّ الأجلْ..؟!. الأجَلْ..؟! كلمةٌ مُبْهمةٌ ومُضلِّلة. لكنْ.. لماذا الآن..؟! مازال السّؤالُ مَوْصولاً. رُبَّما هو حَديثُ المَقْهَى. عائدٌ أنا للتّوِ من جلْستي اللّيليّة المُعْتادة بمَقْهايَ حيْثُ الشّايُ الأخضرُ المُعبّقُ بالنَّعْناعْ، والنّارجيلة. عادةٌ أواظبُ عليْها في السّنواتِ الأخيرة من تقاعدي. على يساري جهة الباب الرّئيسي مع انْحرافٍ بسيطٍ للخلْف، جلسَ كَهْلان يتبارِيانِ بأحجار الدّومينو، يقوم أحدُهما بتسجيلِ النّقاطِ في ورقةٍ أمامه، بينما انخرطَ الآخر في حديثٍ ما. كان إيقاعُ صوْته البطيء يصلني بوضوحٍ لا أتجشّمُ معه أيَّ مَشقَّةٍ في الْتقاطِ فحْوى الحديثْ. بدا واضحاً أنه يحْكي عن صَديقٍ له موثوقٍ في صدْقِ حكايته، تَعَرَّضَ لوعْكةٍ

صِحّيّة نجا منها بأعْجوبة. حكايته بإيجازْ . بعد تنقيحها وإزالة ما بها من إسْهابٍ وتفصيلْ . أنّه أحسَّ ليْلتَها بصوْتٍ يَهْمسُ له قائلاً: أنتَ مُصابٌ بجَلْطة..!! تساءلَ في دهْشةٍ وأثرُ النومِ في رأسه ما يزالْ: أنا..؟!. أجابه الصّوْت في يقينٍ بدا له غريباً: نعمْ.. أنتْ.. أنتَ مُصابٌ بجلْطَة..!!. نهضَ الرّجلُ من نومه مَفْزوعاً وأذانُ الفَجْرِ يتناهَى إلى سَمْعه، وتحسَّسَ جسده في فزعْ، فلمْ يجدْ به أثراً لخَطْبٍ ما. زوجته هي أيضاً . التي أيقظتْها جلبةُ زوْجها المذعورْ . فحَصَتْه فَحْصاً ظاهريّاً وهي تُغالبُ النَّوْم وطمأنتْه على نفسه، ورجَّحتْ أن يكون الأمْرُ كابوساً اسْتعاذتْ بالله منه. ثُمَّ . وبلَهْجةٍ مُطَمْئنة تضعُ نهايةً سعيدةً لمخاوفه، ودّعَتْه عند الباب وهو في طريقه إلى المسْجد. يقولُ صاحبُ الحكايةِ مُسْتطْرداً وهو يَحْكي عن صاحبه الموثوق بروايته: ذهبَ الرجل لصلاة الفجر وعادَ سليماً مُعافى، وتمدّدَ في فراشه مُطْمئنّاً، حتّى راحتْ عيْنُه في النّوْم، فأحسَّ باثْنَيْن يقفانِ إلى جواره يتحاورانْ، قال أحدهما للآخر مُتَعجّباً: تَصوّرْ.. هذا الرّجلُ مُصابٌ بجَلْطةٍ في مُخّه.. ولا يَعْرفْ..!!. أفاقَ الرّجلُ من نومه قليلاً وتساءلَ في فزعْ: أنا..؟!. جاءه صوْت الرّجلِ في يقينٍ لايُداخله شَكّ: نَعمْ أنت..!!. همَّ الرجلُ بالنّهوضِ لكنْ لم تُسْعفْه قواهْ. كانَ بالفِعْل مُصاباً بجَلْطةٍ في المخّ راحَ بَعْدَها في غيبوبة.

. وماتْ..؟!

قالَ الرّجلُ الذي يقوم بتدوين نتائج المباراة بينه وبيْن مُحدّثه ويُصْغي بشغفْ.

. لا.. نجا بأعجوبة.. لكنه ما يزالُ تحت العلاجْ..

ثُمَّ بسُخْريةٍ وصاحبُه يُنْهي الدَّورَ لصالحه بصَفْقةٍ من حجره الأخيرِ على رُقْعةِ الدّومينو: يا لكَ من نبيهْ.. أهذا سؤالٌ تسْأله.. ألَمْ أقُلْ لكَ إنّه هو الذي حكى لي هذه الحكاية بنفسه..؟!.

تجاوزَ الرّجلُ سُخريةَ صاحبه وعقّبَ بتسليمٍ هادئٍ مُطْمئنّ:

. صاحبُكَ هذا.. رجلٌ بيْنه وبيْن رَبّه عَمارْ.. صَدِّقْني..

همَمْتُ بالإدْلاءِ بدَلْوي في الحديث، بعبارة الزّمنِ القديمِ التي لم أعُدْ أذْكرُ قائلَها: ليسَ هناكَ حُلْمٌ هو مُجرّد حُلْمٍ لا غَيْر. لكنّي خشيتُ شُبْهةَ التَّطفّلْ، وخَشيتُ أكْثر من تعقيبٍ ساخرْ على قولٍ قدْ يبدو لهما . وسط هذا الجوّ الرّوْحانيّ الخالص . غامضاً ومُلْتبساً وحمّالَ أوْجه.

*****

في طريقي أنا الآنْ إلى البَيْت. والسُّؤالُ المُعلَّقُ ما يزالْ، رغمَ أنه أصبحَ أكثرَ وضوحاً في ذِهْني. بيني وبين البيْت بضْعُ خطواتٍ لا تسْتغرق أكثر من دقيقتيْن أو ثلاثاً على الأكثرْ. رُبّما تكون هي كُلُّ ما تبقّى لي في هذا العالَمْ. لكنّي سأصلُ على أية حالْ. وسأصْعدُ الدَّرَجَ حتّى الطابق الرّابعْ دون عناءْ. وسأديرُ المُفتاحَ في ثُقْبه المعهود بكلِّ ثقة. سيكونون هناك كالعادة؛ زوجتي وأولادي وبناتي وأحفادي، في سهْرتهم اللّيْليّة المُعْتادة. ورُبّما يكون ثمّة زائرٌ أو زُوّارٌ آخرون من الأهلِ قد انضمّوا لحفلةِ السَّمرِ اللّيْليّة تلْك. سأكون أنا الغريبَ الوحيدَ بيْنهم. وقدْ يتلقّاني أحدُ الصّغار أو بعضهم بتهليلٍ وتتعالى صَيْحات التّرْحاب من بناتي وأزواجهنّ وزوْجات أبنائي وهم يُفسحون لي مكاناً بيْنهم. لكنّي لن أُصْغي لتوسُّلاتهم. لن أتطلّعَ حَتَّى لوجوههم التي ستبدو لي بكلّ تأكيد . كأحجية الوجوه المُختبئة في شجرتها كثيفة الأوراق مُتشابكة الفروعْ . فارغةً من ملامحها وقسماتِها المألوفة، خاويةً من المَعْنى والدّلالة، مُنْبتّةَ الصّلة بالمكان والزّمان والتّاريخ الذي أقطعُ آخر خطواته، عابراً في طريقي المرْسومْ، إلى غُرْفةِ نوْمي، لأتَمَدَّدَ في فراشي وأشُدَّ عليَّ الغطاءْ، ورُبَّما يَغْلبُني النَّوْم وأنا بانتظارِه؛ مَلَك المَوْت الذي قَدْ يَجيءُ في موعده أو لايجيءْ.

. فإذا لمْ يأتِ..؟!

. يكون قدْ أمْهلَني يوْماً آخرْ. ستشْملُني الفرحةُ برجْفةِ الحياةِ في جسدي.. لكنّي لن أدعَ الفرْحة تجْرفني لأطْلقَ . كما فعلَ شاعرنا المسكين الذي فارق الحياةَ بعدها بلحْظة . صَيْحةَ الظَّفَرْ: مازِلْتُ حَيّاً.. فَرْحَتي..!!. فالمَوْت أشْبه بالحظّ.. يبتسمُ لكَ يَوْماً.. ليَسْخرَ منْكَ في اليوْمِ التّالي.

. وإذا جاءْ..؟!

. سيكون مَوْتاً رحيماً على أيّة حالْ.. أشْبه بقَطْفِ ثمرةٍ طابتْ واسْتوتْ على غُصْنها وتهيّأتْ للسّقوط..

. وعِنْدها..؟!

. عِنْدَها سأصْعدُ بعْد طولِ انتظارْ.. تاركاً لهمْ جسداً رثّاً بالياً ومُهْترئاً لكَثْرة مابه من جروحٍ وندوبٍ وتجاعيد، يحْتفي به ويُشّيّعه إلى مثْواه الأخيرْ كُلُّ أولئكَ الذين لم يَرَوْا منّي سِواه ولمْ يَعْرفوا غَيْرَه. في الأعالي . حيثُ التَّلّةُ البعيدةُ وطاولةُ الخُبْزِ التي لا تَمَسُّها يدْ . ستكون هناكَ رَبابْ.. واقفةً بانتظاري.. في يدِها ابنتي التي لمْ تَرَ النّورْ.. سَتتلقّاني بدهْشةٍ وبعَتبٍ خفيفْ، وسؤال عَيْنَيْها الآسرتيْن يقطعُ كُلّ شَكّ: تأخّرْتَ كعادتِك.. فيمَ كان كُلُّ هذا التَّلَكُّؤْ إذَنْ..؟! وقدْ ألوذُ بالصّمْتِ أو أجيبها مُبْتسماً بآخر ميراثٍ حَمَلْتُه معي من دُنياكُمْ؛ عبارة لاعبِ الدّومينو الفائز: بَعْضُهمْ يُفضّلُ الطّريقَ الأطْولَ إلى البيْت..!!. ورُبّما سألْتُها بدوْري وأنا أمْلأ عَيْنَيّ بوجهها ووجْه ابنتي التي لمْ أرَها طيلةَ عُمْري إلاَّ حُزْناً يعْتصرُ القلْب: أكانَ ضَروريّاً أنْ تَخْرجي غاضبةً مِنّي صبيحةً ذلكَ اليَوْم الرّماديّ العاصِفْ..؟!. ستُجيبُني بذات النّظْرةِ المُنبعثةِ

من قرارِ عيْنيْن نافذٌ حُزْنهما للقلْبِ توّاً: يَوْمَها لَمَحْتُ ابتسامته خلْفَ واجهة الزّجاج المُغَبَّش في سيّارته المُندفعةِ على الطّريقِ الإسفلتي الزَّلِقْ.. فعرِفْتُ أنّه قَدَري.. وتَبِعْتُه..

ثُمَّ بتسليمٍ مُفْعمٍ بالرِّضا والسّماحة، وهي تُطوّقُ خاصرتي بذراعٍ وتُطبقُ باليدِ الأخرى على يدِ صغيرتنا، ونحن . ثلاثتَنا . نسيرُ بخُطىً واثقةٍ مُطْمئنّة صَوْبَ بَيْتنا: أكان شَيْءٌ ما سيتغيَّرْ..؟!!.

عَشْرُ مَعْزوفاتٍ صَغيرة.. على نفْس الوتَرْ

(1)

لا مُبالاة

فَجْأة.. أحْسَسْتُ برَغْبَةٍ لا تُقاوَم في تدخين لفافةِ تَبْغ. أنا مُدَخّنُ نارجيلةٍ عتيقْ، غَيْر أنّ رَغْبَتي داهَمَتْني بإلْحاح وأنا أرَى كُلَّ مَنْ حَوْلي يضعون سَجائرهم بين أصابعهم وينفثون دُخانَها بِشَغَفٍ واسْتغْراقْ. مِلْتُ على أقْرَبِهِمْ إليَّ واسْتأذنْتُه في اسْتعارةِ ما تَبَقَّى من سيجارته لأُشْعلَ منها سيجارتي، فأعطاني إيّاها بطيبِ خاطِرْ. وحين صارت في يَدي اكْتَشَفْتُ أنه لا سَجائرَ لدَيَّ لأُشْعلَها. لابُدَّ أنّني اسْتغرقْتُ بعض الوقت في التفكيرْ، لأنّي حين هَمَمْتُ بِرَدِّ السّيجارةِ إلى صاحبِها بدا مَشغولاً أو مُتشاغلاً بالحديثِ إلى الجالس عن يَمينه. نَبَّهْتُه بِرَبْتَةٍ خفيفةٍ على كتفه ثُمَّ بِوَكْزَةٍ من أطراف أصابعي الْتفتَ بَعْدَها إليَّ مُنْزعجاً ورماني بِنَظْرَةٍ من شَرَرْ ثُمّ أشاحَ عنّي بوجهه، مُسْتأنفاً حديثه بتركيزٍ أقلّ مع رفيقه. بِضَميرٍ مُرْتاحٍ ودون إحْساسٍ بالحَرَجِ انصرَفْتُ عنه وتابعتُ سَيْري بين الموائد. كان البَعْضُ من الحُضورِ يَرْقُبُ المَشْهدَ ويبْتسمُ لي بِودّ. حين صِرْتُ على مقربةٍ من بابِ الخروجْ، صارَ بوسْعي أنْ ألبّي نداءَ الرّغْبة وأسْحبَ بِضْعةَ أنفاسٍ من عُقْبِ السّيجارة الكائن بين إصْبَعيّ: الوُسْطَى والسَّبّابة. لكنّة كان قد احترقَ عن آخره وانْطفأ.

(2)

تَرَبُّصْ

فَجْأة.. امْتلأ بهم المكانْ. أعرفهم بوجوههم. ورُبّما ـ لو تحامَلْتُ على نَفْسي واعْتَصَرْتُ ذاكرتي قليلاً ـ أتذَكّرُ أسْماء اثْنَيْن أو ثلاثةٍ منهم. مع أنه لم يَحْدُثْ أن تبادَلْتُ التَّحيّةَ مع أحدهم يَوْماً. هُمْ أشْبه بفريقِ تمثيلٍ أو تَجَمُّعٍ ما من تلك التَجمّعاتِ المهمومة بالثقافة، يتّخذون من هذا المكان مُلْتَقىً لهم بين الحين والحين. يأتون ببزّاتهم الدّاكنة وربطاتِ عنقهم المُميّزةِ وشعورهم المُهوّشة، كتبهم بأيديهم، لهمْ نفسُ السّمتِ والمشْية وطريقة الحديثِ والنظراتِ الفضوليّة المتوجّسة دَوْماً. مُتشابهون هُمْ حَتَّى في ردود أفعالِهم وغرابةِ أطْوارهمْ. أقربُ الجالسين منهم إلى جواري شابٌّ في مُقْتَبَلِ العُمْرِ يَصْلحُ لأنْ يكون ابْناً لي.. آخر العنقودْ رُبّما. في وجْهه جَهامةٌ لا تليقُ بِسِنّه. على المائدة بيننا بضعة صفوفٍ من كُتيّباتٍ مُتراصّةٍ بَعْضُها فَوْق بَعْض، أشْبه بنشراتِ دعايةٍ أو أدلّةِ مَعارض. دَفعَني فضولي إلى تناول إحْداها والتقليب في صَفحاتِها، لكنّي ما كِدْتُ أشْرَعُ في التَّصَفُّح حتى زَجَرَتْني ملامحُ وجهه التي تقلّصَتْ وانْقَلَبَتْ سِحْنتُه وهو يَرميني بِنَظْرَةٍ غريبة زادَتْ من كراهيتي له وتوَجُّسي منه. أعَدْتُ النَّشْرَةَ إلى موضعها لكنَّ رَصّة الكتيّباتْ بدتْ غير مُنسجمة مع بعضها. فازدادتْ ملامح وجهه تَقَلّصاً وتحوّلتْ كراهيتي له إلى غَضَبٍ لا سبيلَ إلى كَبْحه. كالسّائرين نياماً وجَدْتُني أنْهضُ من مجلسي وأنقضّ عليْه بلَكْمةٍ كادتْ تُصيبُ وجْهَه في مَقْتَلْ، لكنّها أخْطَأتْه وطاشَتْ في الهواءْ. عُدْتُ مُمْتلئاً بغَيْظٍ مُنفلتِ العيارِ كبُرْكانْ وسَدّدْتُ لكمةً أخرى إلى فَكّه، لكنّها هي الأخرى ذهبَتْ أدْراجَ الرّياحْ. كانَ يُجيدُ المُراوغةَ وهو غائصٌ في مقْعدِه. كُلّما عاجَلْتُه بلَكْمةٍ انكمشَ وتضاءل حَدّ التّلاشي وتفاداها مُصيباً إيّايَ بالجنونْ. كُلّما طاشَتْ ضَرْبَةٌ طاشَ معها

صوابي، فأنْدفعُ مَرَّةً أخرى بتصميمٍ أكثر وعُنْفٍ أشَدّ، حتّى انْهدّتْ قوايَ وتسارعتْ أنفاسي. حين كَفَفْتُ أخيراً عن عبَثِ المُحاولة، كُنتُ ألْهثُ وأتصَبّبُ عرقاً. بينما انتصَبَ هو واقفاً، آخذاً زمامَ المُبادرة، على وجهه المُرْبَدّ مَسْحة سيْطرةٍ وتَسَيُّدْ، وفي عيْنيْه نظرة ظَفرْ. بدا طويلَ القامةِ فارعَ الطّولِ، وهو يتقَدّمُ نحْوي بخُطىً واثقة، وأنا أتراجعُ لاهثاً، مُتجنّباً الارتطامَ بالموائد، لا يَتراءَى أمامي خيط نورٍ أو بَصيصُ أمَلٍ في النجاة، سِوَى أن يكون هذا الذي يَحْدثُ لي حُلْماً أفيقُ منه سَليماً مُعافَى.

(3)

اسْتِثْناءْ

فَجْأة.. انْشَقَّت الأرْض عنه، فإذا هو شاخصٌ على منَصَّةِ الإلْقاءْ . إلْقاء الشِّعْر . بلَحْمه وشَحْمِه. الشّاعرُ الاسْتثْناءْ كما يُسَمّيه محبّوه ومُريدوه، نِسْبَةً إلى دُرَّته اليَتيمة: المَرْأةُ الاسْتثْناءْ. هكذا كما يَنْطقُها هو، بتَفْخيمِ حروفها وتَرْجيعِ رنينها وليّ اللّسانِ بأنَفةٍ وتعالٍ وشموخْ عند حَرْف المَدّ وسكونِ الهَمْزة الأخيرَة. سادَ القاعةَ هَرَجٌ ومَرَجٌ والْتهبَت الأكُفُّ بالتَّصْفيق، وهديرُ أصْواتهم أشْبَه بزئيرِ أسودٍ جائعةٍ أو مُجَوَّعة. المَرْأة الاسْتثْناءْ. انْحَنى مُمْتَثلاً مُبْتَسماً مُلَبّياً نداء القطيعْ. أخْرَجَ من جيْبه بِضْع وريْقاتٍ مُهْترئة لطولِ ما تعاقبَ عليْها من دَهْر. لا أدري كيفَ لمْ يَحْفَظْها عَنْ ظَهْر قلْب، وهذه هي المَرّةُ الأولى . رُبّما . بعد الألْف، التي يتهيّأ فيها لإلْقائها على مسامعِ جَمْعٍ كهذا. هو شاعرٌ مُتوسّطُ القيمة، وهذا أسْوأ الأمورْ. الشاعرُ الجَيّدُ تُصْغي إليْه باسْتمتاعْ، والشّاعر الرّديء تَسْتطيع أن تصُمَّ أذُنَيْك دونه وتُلْقي بما يقول في أقْرَبِ مَكبٍّ للقمامة، أمّا الذي بينهما هذا فهو المُعضلة التي يستعصي عليْك حَلّها، لأنّه يقولُ كلاماً صالحاً للاسْتهلاك الآدمي، كالماء الصّالح للشُّرْب، لكنّه عديم اللّونِ والطّعْم والرّائحة. صاحبُنا يقع ضمن هذه المنطقة الحَرِجة. خَطّ الاسْتواءْ. فهو يقولُ كلاماً يستحقُّ أن تَسْمعه، فتظلُّ . طيلة الوَقْتِ . مُسْتَنْفراً، مُرْهفاً حواسّك لالْتقاطِ ما يُدْهشكَ أو يُفاجئك بما لا تتوقّعْ، لكنْ دون جَدْوَى. وحين يفقد الشاعرُ . أو صانعُ الكلامِ عموماً . فضيلة الإدهاشْ، فإنه يُصْبحُ أشْبه بالسّاحر الذي يفقدُ خفّة اليَدِ ومهارةَ الابتكارْ، فتنكشفُ حيلُه وتتحوّلُ إلى مُجرّدِ خِدَعٍ صغيرة تُثيرُ اسْتخفافَ الجمهور ثُمَّ غضَبَه فاسْتفزازه. ليْسَ غَضَباً بالتّحديدْ، هو شَيْءٌ أسْوأ من هذا، شبيهٌ بالرّغْبَةِ في حَكّ الجِلْد بموضعٍ من

جسدِكَ لا تَصلُ إليه أصابعك. المَرْأة الاسْتثناءْ. يَلْفُظها بلَهْجَةِ الواثقِ المُدلّ، المُطْمئنّ إلى جمهورِه، المُتيقّنِ من إمْساكه بخيوطِ اللُّعبَة، القادرِ دوْماً على اسْتثارة غرائز القطيعِ وإشْعالِ حماسَته. دَوّت القاعةُ بالتَّصْفيقْ، وانْطلَقَ شاعرُنا كفرَسٍ مُطْلَقِ السّراحِ أخَذَتْه الغُلْمة، فراحَ يَصْهلُ بالقصيدْ. ما يزيدُ الأمْرَ سوءاً أنه ليس فقطْ شاعراً متوسّط القيمة، بل هو أيضاً متوسّط الطولْ، في مُفارقةٍ مُدهشة بين رأسٍ مُتضخّم ونصْفٍ أسفل نحيلْ. رأسُه أيضاً ينطوي على مُفارقةٍ لا تُخطئها العيْن، بين مُقَدّمِ رأسٍ أملس خالٍ من الشَّعْر أشبه بمجسّم الكرة الأرضية، ومُؤخّرِ رأسٍ أصْلع ينتهي عند القفا بلُمَّةِ شَعْرٍ أجْعد كثيف أشبه بفروةِ خروفٍ تلبّدَ صوفُها. منطقُ الأمور ـ إن كان ثَمّة منطق ـ أنه لا يصحُّ إلاّ الصَّحيح، وأنَّ تكرار النُّكتة يُفقد جمهورَها مُتْعةَ السّماعْ، فينفضُّ عنها فاتر الحماسْ، فما بالك والنّكتة سخيفةٌ ـ أصْلاً ـ وبائخة..؟!. المَرْأة الاسْتثناءْ. هذه هي المَرّةُ الأولى بعد الألْف، التي أتبعه فيها مُنْدَسّاً بين جمهوره، آملاً ومؤمّلاً وضارعاً إلى الله أن تحدثَ المُعجزة وتفترَ حماسة الجمهور رويْداً وهو يكتشفُ أنه يُصْغي إلى هُراءٍ لا يُثيرُ دَهْشَةَ أحدٍ ولا يُجدي مع رثاثته تَرْميمٌ أو تنغيمٌ لمداخل الحروفِ ومخارجها أو أداءٌ تَمثيليٌّ يزيدُ الطّين بلّة، فينفرطُ عِقْد هذا الجَمْع ويتسرّبُ أعضاؤه رُويْداً حتّى يجد الشاعرَ الاسْتثناء نفسه وحيداً في قاعةٍ خاليةٍ صَمّاءَ بِكْماءْ. لَحْظَتُها سوف أنهضُ من مكاني هذا راضيَ النّفسِ مُطمئنّ الضّميرِ إلى أنّ العالمَ ما يزالُ بخيْر. لكنّ شَيْئاً من هذا لمْ يَحْدُثْ. مازالت المرأة الاسْتثناء تُلْهب حماسة القطيعْ. ومازال شاعرُنا النِّصْف نِصْف يَشَبُّ على أطراف أصابعه ويُطْلقُ عقيرتَه بالشِّعْر، وماتزالُ النُّكْتة تكبرُ وتَتَّسعُ دون أن تضحكَ أحداً غيري. لكنّ ضحكاتي التي بلغتْ حدّ الهسْتيريا تتبدّدُ وتتلاشى وسط طوفان الصّخبِ الجارفِ وصَيْحاتِ الإعجابِ وصرخاتِ الاسْتحسانِ ورغباتِ الاسْتزادة. شعورٌ عميقٌ بالوحدة يجتاحني ببرودةٍ تُثْلجُ أحشائي وأطرافي دون أن أتمكن من السيطرةِ على انغماسي

المحمـوم بالضـحك. وَحْـدي أنـا الجـالسُ والقاعـةُ مَزحومـة. وَحْـدي أنـا الضّـاحكُ والقاعـةُ مَـهمومة•.

• من شِعْر محمد مفتاح الفيتوري.

(4)

إغْواءْ

على غَيْر تَوقّعْ.. تَملَّكَتْني رَغْبةٌ شِرّيرة في إيذائها. فتاتي الجميلة، ذاتِ الأربعين عاماً والعَيْنَيْن النَّجْلاويْن والشّعْر الناعم المُتطاير دوماً مع كُلّ نَسْمةِ هواء، كَعُرْفِ مُهْرةٍ تَرْكضُ عَكْسَ الرّيحْ. تعرّفْتُ إليْها في مناسبةٍ خاصة تضُمُّ أصدقاء ومعارفَ وجمعاً من أهل الفكر والرّأي. قَدّمني إليْها صَديقٌ مُشْترك، عرفْتُ لاحقاً أنه يُعاشرها مُعاشرة الأزواجْ. كانت تنتحي رُكْناً قصيّاً من أركان القاعة وتُدخّن في صَمْتٍ وشرودْ. هي أرملة، تُوفّي عنها زَوْجُها أستاذ الجامعة في ظروفٍ غامضةٍ ومُلْتبسة. حين الْتقتْ عيناي بِعَيْنَيْها . أوّل مَرّة . قالتْ لي عَيناها: أنتَ ضالّتي المنشودة.. رَجُلي الذي أبحثُ عنه. خَصّتني بابتسامةٍ فاتنة وأجلسَتْني إلى مائدتها. تبادلْنا حديثاً فاتراً سُرعانَ ما تصاعدتْ حرارته، لكنْ قَبْلَ أن يصلَ إلى درجة الغليان داهَمَتْني عبارَتُها:

. أخشى أن أحرمك من أصدقائك.. لا أريدُ أن أستأثرَ بك دونَهمْ..

عبارةٌ نِصْفُها صَدٌّ ونِصْفها إغْواءْ، وأغلبُها رَغْبَةٌ في التّخلّص منّي. غادَرْتُها مُرْتبكاً وموقناً بأنّها هي الأخرى أُنثايَ التي ظَلَلْتُ أبحثُ عنها طيلة العُمْر، وكَلَّفتْني زيجتيْن فاشلتيْن وبِضْع علاقاتٍ عابرة في بُلْدانٍ شَتّى من أرجاء المعمورة. بقيتُ شهوراً أتقصّى أخبارَها وأتعقّبها بدأبِ

ذئْبٍ عجوزْ تَمَرّسَ على الطّرادِ والقَنْص. في لحظةٍ ما رأتْها مُناسبة، مالَتْ عليّ وسألتني أن أشعلَ لها سيجارتها، وهمسَتْ في أذني: ألا تكلُّ من الطّرادْ..؟!

لَحْظتها أيقَنْتُ أنها علَقَتْ في شباكي. لكنّها خَيَّبَتْ أملي وهي تتخذُ مَجْلسها إلى مائدتي: لِيَكُنْ.. لكنْ بشروطي..!!

وأكملتْ وهي تنفثُ دخان سيجارتها من فمها الواسع المُكتنز الشّفتينِ وطاقَتَي أنفها الصغيرتيْن: أنا امْرأةٌ لا تُصَدّق قَطّ أنّ رَجُلاً واحداً خَيْرٌ من رَجُلَيْن..

. وأنا رجلٌ يؤمنُ بأنّ أية امرأة خَيْرٌ منْ لاشَيْء..!!

قالتْ ضاحكةً وهي تنصرفُ عنّي إلى أصدقاءٍ آخرينْ: ألَمْ أقُلْ لكَ إنّك ضالّتي المنشودة.. ؟!

وضغَطَتْ على مخارج الحروف وهي تودّعني بعبارةٍ بدَتْ لي غريبةً في غير موْضعها: عُطَيْلي.. الّذي طالما حَلُمْتُ بلُقياه.. مُذْ رَحَلَ عنّي رَجُلي الوحيدْ..!!

رَجُلُها الوحيدْ.. أسْتاذ الجامعة الذي داهمتْه نَوْبتُه القَلْبيّة في الفراش.. عبثاً حاولتُ أن أنتزعَ منها سِرّه الذي رَحَلَ معه. فقطْ قالتْ لي في ذاتِ السّياقْ:

. المرأةُ تغتفرُ للرّجُلِ كُلَّ إساءة.. إلاّ أن يَرْحلَ عنها في لحظةِ رَغْبَة..!!

امرأةٌ نهمة. تأكُلُ بِشَغَفٍ وتَشْرَبُ وتُدخّنُ وتُمارسُ الحُبَّ بإسْرافْ.

. أنا مُدْمنة.. ؟! لا.. إدْماني الوحيدْ الذي لمْ أبْرَأْ منه ولا أرْغَبُ في البُرْء.. هو الوَغْد الذي رَحَلَ عنّي قبْلَ أن أكتفي منه..

وأكْمَلَتْ بعَيْنَيْن نِصْف مُغْمضَتَيْن:

. منْ يَوْمها.. وأنا أفتّشُ عنه في مخادعِ كُلّ الرجالْ..

. أنتِ تَقْتُلين نَفْسَكْ..

اتّسَعتْ عيْناها فجأة وأشْرَعَتْ حاجبيْها المُزَجَّجَيْن كأنّما انتابَتْها نَوْبَةُ صَحْو:

. ألَمْ أقُلْ لكَ أنّني حاولْتُ الانتحارَ أكثرَ من مَرَّة..؟!

وحين لَمْ تَرَ في عَيْنيَّ أثراً للدّهْشَة، أجابَتْ على السّؤال المُعَلَّقِ في قرارهما:

ثُمَّ وهي تتفرّسُ في وجْهي وتُحدّقُ في عَيْنيّ:

. هلْ تَعْرفْ.. لكَ عَيْنا قاتِلْ..

وأضافَتْ قَوْلَها:

. ألَمْ أقُلْ لَكَ أنّك عُطَيْلي المَنْشودْ..؟!

في لقائنا الأخيرْ قالتْ لي عيْناها بضراعةٍ وقدْ فَرَغْنا لتوّنا من طقوسِ المُضاجعة:

. هَلْ تُنْهي أنتَ ما فَشَلْتُ أنا في إكْماله..؟!

كانت رَغْبتي في إيذائها قد اسْتبدّتْ بي فجأة، ولَمْ أعُدْ قادراً على كَبْحِ جماحِها. وأنا أضْغَطُ على عنقها الجميلِ ضَغْطتي الأخيرة، قالتْ لي عيْناها وقد اكتسى وجْهها برضاً وطُمأنينةٍ لم أشْهدهما من قبلُ قَطّ:

. لا تُباهِ بنَفْسِكِ كثيراً.. ولا تَنْسَ أنني مَن اسْتأجرَكَ لتَقْتُلني..!!

كُنْتُ كمَنْ يَعْبرُ هوّةً عميقة بين الحُلْمِ والحقيقة. ارْتَخَتْ أصابعي فجْأة وتَخَدّرَتْ أعضائي، وأنفاسُها تتسارَعُ ثُمَّ تنتظمُ في تواترٍ محمومْ. حينَ فتحَتْ عَيْناها أخيراً كُنتُ قد غادرْتُ الفراشَ

وتَهيّأتُ للرّحيلْ. تحاشَيْتُ النّظرَ إلى عَيْنيْها. كُنتُ أعرف أنها لَنْ تَغْفِرْ لي قَطّ أني ثانيَ اثْنَيْن خَذلاها في لَحْظةِ رَغْبَة.

(5)

سوناتا الغُرْبَة

كان ذلك في يومٍ من أيام الغربة؛ هناك في ذاكَ البلد البعيد حيث يشتد الحرّ صيفاً ويتجمّدُ الدَّمُ في العروقِ شتاءً. وكنتُ ـ كالعادة ـ وحيداً؛ وحيداً ومهموماً. وهَمُّ الغربة لِمَن لا يعرفه ثقيلٌ يستوطنُ قلبكَ كأنه حجرٌ رازِحٌ على صدرك. كان وقت الغروب وبقايا ضوء ذابل يتسلّلُ عبْرَ شيش النافذة الموارب، وأنا مُمَدَّدٌ بطولي على الفراش أتأمّلُ سقفَ الغرفة في صَمتٍ، ورأسي نهبٌ لأفكار وخيالاتٍ وهواجس تتجاذبُ وتتنافرُ ويَدْفَعُ بعضُها بعضاً، فتنزلقُ على سطح المُخيّلة كالكُريّات الزجاجية. لابُدَّ أنني غفوتُ بُرهةً أو أقلّ فلم أنتبه له حين حطَّ على إفريز نافذتي واستقرَّ بأمان. طائر كناري أصفر اللون بهيج المنظر، لم يُضَيّعْ وقتاً فشرعَ في الغناء. هل كان غريباً مثلي جاء يبثني لواعجه ويتحَسَّسُ أوجاعي..؟! أم أنه ضاقَ بِسِجْنِه فتحيّن فرصةً للهرب ما إن تهيَّأت له حتى لاذَ بالفِرارِ إلى غير وجهة، فساقَتْه الأقدارُ إلى نافذتي..؟!. كان صوتُه يتردَّدُ صداه في داخلي عذباً شفّافاً نَدِيّاً كحبّاتِ بَرَدٍ تتساقطُ على القلب. صَوْتٌ آتٍ من ينابيع السِّحْرِ، تسري سُكْرَتُه في الجسدِ خدراً ناعماً لذيذاً، كما يسري حليبُ الرضاعِ في فمِ طفلٍ بَرَّح به الجوعُ فطعِمَ وشَبِعَ وغلبه النوم. حين صحوتُ أخيراً لم أعْثُرْ له على أثَرْ. كانت الغرفة غارقةً في الظلمة، وأشعة الشمس الغاربة قد تلاشت تماماً عن النافذة، ولَيْسَ ثَمّةَ غير الوحدة والوحشة والسكون، وبقايا أصداءٍ لصوتٍ رائقٍ شجيّ يتردَّدُ في مسامعي، فيُشرقُ في عيْنَيَّ فتاتُ ضوءٍ شحيح لفرحٍ عابرْ.

(6)

عَزْفٌ مُنْفَرِدْ

أحْلُمُ ـ مُنذُ الصَّغَرْ ـ ببطولة فيلمٍ من أفلام هوليوود تُقاسمني البطولة فيه نجمتي الأثيرة ناتالي وودْ. قصة الفيلم ـ كما تصَوّرته ـ تدور أحداثها في بلدة ساحليّة صغيرة يعيشُ أهلها على صَيْدِ الأسماكِ وخِدمة البَحّارةِ والصعاليك وشُذّاذِ الآفاق القادمين مع السُّفن. تلعب ناتالي وود دورَ فتاة جميلة وفقيرة تعملُ ساقيةً في حانة من حانات البلدة المُنتشرة على الشّاطئ، وتربطها علاقة حُبٍّ مشبوبٍ مع فتى رومانسي حالم ومولع بإنشادِ الشّعر. أقومُ أنا بدور هذا الفتى الذي يعيشُ مع أمّه الكادحة وأبيه المُقعد وشقيقه الصغير الذي تهبطُ عليه ـ فجأة ـ ثروة هائلة أوصى بها إليه بحّارٌ عجوز هبط بالبلدة يوماً. تتغيرُ حياة الأسرة تماماً ويُصبحُ لها شأن ومكانة بالبلدة، لكن الفتى الحالم يظلُّ يبحثُ مؤرّقاً ومهموماً عن سِرّ هذه الوصيّة، حتى يَعثُرَ ـ مُصادفةً ـ على صورة قديمة للبحّارِ فيجد فيها كُلّ ملامحِ شقيقه الأصغر. يُشهرُ الفتى سيفَ الحقيقة المُروّعة في وجوه عائلته فتنهارُ الأمُّ باكيةً تحتَ وطأةِ الإحساسِ بالذنب، ويُنكّسُ الأب العاجز رأسه استخذاءً. أمّا الابن الأصغر ـ الوارث ـ فيرمي شباكه حول فتاة الحانة التي تسقطُ تحت إغواءِ المالِ وبريق الثروة وتهجُرُ فتاها الذي ينقطعُ آخر خيطٍ بينه وبين البلدة وأهلها فيرحَلُ مع أوّلِ سفينة قادمة. وينتهي الفيلم والجميع واقفون على شاطئ المرفأ يُلوّحون له تلويحة الوداع. ماتت ناتالي وود مُنتحرة وحَزنتُ لموتها وضياع حُلمي. لكنني دأبْتُ ـ بعد ذلك ـ على عادة ما تزال تلازمني حتى الآن. صِرْتُ أتحيّنُ الفُرْصة ـ

وأحياناً أفْتعلُها افْتعالاً ـ كيْ أحكي قصة الفيلم لكل من أعرفه من أصدقائي، ممهّداً لحكايتي بالقول: هذه قصة فيلم شاهدته في طفولتي وغاب عني اسمه. وأنالُ حظي من مكافأةِ الجُمهور حين أرى التأثر على الوجوه ورغرغةَ الدموع في عيون المُستمعين.

(7)

مخاضْ

قديماً.. كُنْتُ أعْشِقُ الغِنَاءَ والشِّعْر.

كُنْتُ مَخْلوقاً نُورَانيّاً لَمْ يَتَجسَّدْ بَعْد، ورَحَابةُ صَوْتي باتِّساعِ الأفقِ المُمْتدِّ حولي من كُلِّ صَوْب.

كُنْتُ أصْحو في غَبَقِ الصَّباحِ يَتناغَمُ في داخلي هَاجسٌ كأنه نُطْفةٌ يَتدَفَّقُ فيها مَاءُ الحَياةِ شَيْئاً فَشيْئاً وتَتَخلَّقُ الكَلمَاتْ.

هَكَذا كَانَتْ تُولَدُ القصيدة.

حين بَلَغْتُ سِنَّ الحُلمِ اخْشَوْشَنَ صَوْتي، وتَكَشَفَ لي . في المرآةِ . جَفاء وَجْهي، فَكَفَفْتُ عن الغِناءِ وهَجَرْتُ الشِّعْر. لَكِنْ.. بَقيَ ذلك الهَاجِسُ المُعَذِّبُ يُعَاودُني كل صَبَاحْ.

ذاتَ صَباحِ بَعيدْ، صَحَوْتُ وإيقَاعُ هذه الكَلمَاتِ يَتَرَدَّدُ في دَاخِلي: في زَمَانِ المَرَايَا يُعَذِّبُني قَلبيَ الجَاهِليّ..!!

قُلْتُ في نَفْسي: هَذا بَدْءُ القَصِيدْ، خروجُ الحيِّ من الميت وانْعتاقُ الرّوحِ من طينةِ الجَسَدْ.

لكن.. مَرَّتْ سنواتٌ طوالْ دون أن تكْتملَ القصيدة.

كلما هممتُ.. أحسُّ الكلمات تفرُّ من ذاكرتي كالحمائم المهاجرة، والصُّورَ تتسرَّبُ من مخيلتي كحبات الماءِ بين الأصابع.

أحسني كالإصبع المجذوذ يمتليء بالرغبة ويعجز عن الفعل.

وأحسني كالنخلة العقيم تصفر فيها الريح دون حمل .

أعرف كل شيء..

أعرف أن صوتي قد احتبس حين زايلتني براءة العشق .

وأن ملكةَ الشعر قد هجرتني مُذْ تكشف لي . في المرآة . وجهي المنحوت من لحم ودم

لهذا يملؤني الحزن .

(8)

حَنينْ

كانت جَدَّتي لأبي حين تَضْحَك يَرْتَجُّ جسَدُها وتَدْمَعُ عَيناها ويَعلو وجْهها العجوز فَرَحٌ طُفوليّ.

من أقوال جَدَّتي المأثورة: أرْبَعٌ لا تَكتمِلُ بِغَيْرِهِنَّ سعادة الرَّجُلْ. أرْض طِرِحَة (أيْ كثيرة الطَّرْح والعَطاء)، ودَارْ بِرِحَة (أيْ فسيحةٌ رَحْبَة)، وعَصَا سِرِحَة (دليل العِزِّ والجاه)، وامرأةٌ شِرِحَة (أيْ تُسَرُّ لمرآها العَيْنُ ويَنْشَرِحُ القَلْب).

كُنتُ ـ في صِبَاي ـ أعابثها بِنَزق: الأرْبَعَة..؟! واحدة تكفي..!!

فَتُشيرُ بإصبعِها اليابِسِ النَّحيل علامَةَ الاحتجاجْ: أبَداً.. لا تُغني إحداها عن الأخرى..

وتُرْدفُ في حَسْم: عَلَيْكَ بالأربعة..!!

ثُمَّ تَشْرَعُ في الضَّحِكْ.

ماتَتْ جَدَّتي عن عُمرٍ يُناهزُ الخامسةَ والثَّمانين بعد أنْ عَمَّرَتْ إحْدى عَشَرَ بيْتا بِعَدَدِ أبنائها السِّتَّةِ وبَنَاتها الخَمْس.

أمَّا أنا فقد تقَلَّبَتْ بي الأيَّامُ والخُطى والدُّروبْ. وبَقِيَتْ هذه الكلمات في مُخَيِّلتي طيلَةَ الوقت.

وها أنا ذا على مشارفِ الخَمسينْ.

داري المَطاراتُ وعيونُ المَرافئ وشُقوقُ اللَّيْلِ في المُدُنِ الغَريبة.

وعَشيرتي رِثْلٌ من الكَلِماتِ المُنكَسِرة.. لا زَهْوَ ولا عِزَّ ولا مَنَعَة.

لَمْ أُعَمِّرْ بَيْتاً واحِداً.

ولَمْ أحُزْ من أرْضِ الله قيراطاً واحداً.

و.. لَيْسَ لي امْرَأةٌ بَعْد.

كُلَّما تَقاطَعَتْ في وَجْهي المَعابِرُ وتشَابَكت الرُّؤى، أحضَرْتُ ورقةً بيْضاءَ وقلَماً، ورسَمْتُ خارطةٍ لوطنٍ بعيدْ، ووجْهٍ من زمنٍ آخَرْ.

(9)

المَقْهَى الزُّجاجي

أُواعِدُ فتاةً شابَّةً بِمِعْطَفٍ قصيرٍ وساقَيْن بديعَتيْن. يروقُ لي مَرْآها وهي آتِيَةٌ لِمَوْعدي. تَعْبُرُ مُسْرِعَةً الشَّارِعَ الغاصَّ بِحَرَكَةِ السَّيّاراتِ وضَجيجِ المارَّة، وعيْناها على المَقْهَى الزّجاجيّ حيْث أجلس. أراها من خَلْفِ الواجهة الزّجاجيّة تَتَوقَّفُ قليلاً وتُحْكِمُ ياقَةَ مِعْطَفها وتُعَدِّلُ خُصلاتِ شَعْرِها الأصْفَرِ الخَفيفِ المُبْتَلّ ثُمّ تُتابِعُ سَيْرَها قاصِدَةً المَقْهَى. ولأنّنا نقطُنُ ذلك الجُزْءَ من العالم حيث الطَّقْسُ شِبْه جافٍّ وحيْثُ المَطَرُ قليلُ الهطولْ، فهي كثيراً ما تُخْلِفُ مَوْعِدَها. وأحياناً في الأيّام القليلة المُمْطِرَة تُغَيِّرُ رأيَها فَجْأة فَتَمُرُّ بِمُحاذاة المَقْهى وكأنَّها لا تَعْرِفُني. أفكِّرُ أحياناً في اقْتِفاءِ أثَرِها لكنَّني أخْشىَ من رَدَّةِ فِعْلِها غيْر المُتَوَقَّعَة. من يَدْري..؟! قَدْ تُحَدِّقُ في وَجْهي بُرْهَةً وهي تَسْتَحِثُّ ذاكرتها. لكنّها في كُلّ الأحوالِ سوف تُتابِعُ سَيْرَها ظَنّاً منها أنَّني رُبَّما أكون واحداً مِمَّنْ شاهدوها في ذلك الفيلم الأجنبي اليَتيمْ الذي ظَهرَتْ فيه بِمَحْضِ الصُّدْفَة، وهي تَعْبُرُ الشارعَ بِمِعْطفِها المَطَريّ القصيرْ وساقَيْها النَّحيلَتَيْن.

(10)

نَظْرَة مُوَدِّعْ

تَلقَّتْني عند الباب بعيْنيْن لَوْزيَّتَيْن انطفأ نورهما إلاّ من وميضٍ متقطع، كأنها ذبالة شمعةٍ بلغت نهايتها. كان وجهها أبيض شديد البياضِ في شحوبٍ وملامحها دقيقة وبقايا وسامةٍ ما تزال في سيماء الوجه. سألتها . وأنا أنحّي ملاءة السرير جانباً وأتحسّسُ نبض يدها . عن اسمها فابتسمت ابتسامة شاحبة وهي تهمس في خفوت:

. ألم يقولوا لك..؟!

أحسستُ بالحرج فرسمتُ ابتسامة حياءٍ على شفتيّ وتابعتُ فَحْصَ جسدها أو ما أبقى المرض منه.

. نعم.. أُمَيْمة.. اسْم جميل

كانت العلّة واضحةً لا لَبْسَ فيها: أنيميا حادة. قلت لها ورغبتي في الحديث تغلب على صوتي:

. قالوا لي أنكِ لا تأكلين..

أومأت برأسها علامة الإيجاب.

سألتُها بدهشة حقيقية، وأنا أتساءل بيني وبين نفسي عَمّا حلّ بهذا الجسد الذي لم يتجاوز ربيعه الخامس عشر ليزهدَ هكذا في الحياة:

. لماذا..؟!

انفرجتْ شفتاها عن ابتسامةٍ فاتنة:

. قُلْ أنتَ.. ألسْتَ الطبيب..؟!

وأرْدَفتْ بصوتٍ أكثر شحوباً:

. دكتور.. قلْ لهم: دعوها ترحلُ بسلامْ

وأغمضتْ عينيها. بينما تشاغَلْتُ أنا بلملمة حاجياتي. وأنا أحمل حقيبتي وأتوجه صوب الباب تأملتُ وجهها الشاحبَ عن كثبٍ. ولأمْرٍ ما لم أستطعْ مغالبة رغبتي في أن ألقي عليها نظرةً أخيرة قبل أن أغلق باب الغرفة وأنصرف.

المُحْتوى

1. مَوْتٌ مُحَقَّقْ
2. مِعْطف (جو تايْنانْ)
3. جُرْحٌ قَديمْ
4. عِشْرَة عُمْر
5. قِسْمَة غُرَماءْ
6. الثُّعْبانْ
7. أهْل البلادْ
8. بورْصة القُطْن
9. خَسارَة لاتُعَوَّضْ
10. بَيْتٌ آيِلْ للسّقوطْ
11. طَقْس سَيِّئْ
12. يَوْمٌ منْ ذاتِ الأيّامْ
13. بِنْت القُنْصُلْ
14. سِباق الماراثونْ
15. العَوْدة إلى البَيْت
16. عَشْرُ معزوفاتٍ صَغيرة.. على نَفْس الوَتَرْ

. لامُبالاة

. تَرَبُّصْ

. اسْتِثْناءْ

. إغْواءْ

. سوناتا الغُرْبَة

. عَزْفٌ مُنْفَرِدْ

. مخاضْ

. حنينْ

. المَقْهَى الزُّجاجي

. نَظْرَة مُوَدِّعْ

عن المُؤلّف

. قاصٌّ وروائي

. نُشرَ لـه العديد من النصوص الإبداعيـة والمقالات النقديّة بالصحف والمجلات الأدبيـة فـي مصر والوطن العربي.

ـ صدر لـه: أوّل الغَيْث (مجموعـة شعريّة) عام 2008، العشْق فـي زمن المرايـا (مجموعـة شعريّة) عام 2009، فَحْل التّوتْ (مجموعة قصصية) عام 2008، مـاء الحيـاة (روايـة) عام 2009، مَطَرْ صَيْفي (مجموعـة قصصيّة) عـام 2014، ثُنائيّـة الأرْض والملْـح (روايـة مـن جُزْأيْن: مِلْح الأرْض، أرْض المِلْح) 2014.

. لـه تحت الطّبْع: ساعي بريد الموتى (روايـة)، مَتْروكاتٌ لم تُرْصَدْ (نصوص قصصية قصيرة)، السّائرون نياماً.. وموسم الهجرة إلى التاريخْ (مقالات نقديّة).

. حصل على العديد من الجوائز منـها:

. جائزة الطّيِّب صالح للإبداع الكتـابي لعام 2014 (الجائزة الثانيـة) . عن المجموعـة القصصية (مطر صَيْفي).

ـ جـائزة نـادي القصَّـة للمجموعـة القصصـية المطبوعـة (الجـائزة الأولـى) لعـام 2011/2010.

ـ جـائزة نـادي القصـة للقصـة القصـيرة غيْـر المطْبوعـة (الجـائزة الأولـى) لعـام 2011/2010.

. جائزة نادي القصة للرواية غير المنشورة (الجائزة الأولى) لعام 2010/2009.

. جائزة إحسان عبد القدوس للقصة القصيرة (الجائزة الأولى) عام 2010/2009

. جائزة الإبداع في النقد الأدبي (جائزة الأديب الراحل الدكتور محمد زكي العشماوي) . جامعة الإسكندرية . عام 2009/ 2010.